سليمان الحكيم

لويس عوض
هذا الفرعون..

١٩٩١
مكتبة مدبولى

كلمة أولى:

.. لماذا الشعوبية؟

الشعوبية ظاهرة سياسية أطلت - وتطل برأسها دائما - فى عصور الانحطاط والضعف فى الأمة العربية.. ظهرت لأول مرة فى نهاية الدولة الأموية، حين فرغت من فتوحاتها، وهادنت أعداءها، فلم يعد هناك العدو «الخارجى» الذى يفرض على كل طوائفها وحدة وطنية تعصمهم من الدمار والزوال.

حينئذ وضعت الدولة العربية بسيفها فى الجراب .. فطمعت أعداءها «داخليا» فى انتزاع هذا السيف وتحطيمه فظهرت الحركة الشعوبية بقيادة الفرس، وراح زعيمهم أبو مسلم الخرسانى يعمل لإعادة أمجاد الامبراطورية الفارسية القديمة متخذاً من ركوب الخلافة العباسية وسيلة لذلك.

ولما كان العرب فى تلك الفترة «فوق» والفرس «تحت».. فقد راحوا يعملون على قلب الوضع القائم ليصبحوا «فوق العرب» وفوق الامبراطورية الجديدة.

راح الفرس ينبشون فى التاريخ والجغرافيا والأدب والثقافة وفى كل مجال رأوا لأنفسهم فيه فضلاً على العرب.. فألف حميد بن البختان كتابه «فضل العجم العربى»، وظهر كثير من الكتب فى تلك الفترة مما عرف فى التراث باسم كتب «المثالب». أى أن أفضال العجم.. كان يقابلها

مثالب العرب!!.

لذلك فقد راح «خلف الأحمر» و«حماد الراوية» يزورون فى شعر العرب ويدسون فيه الكثير مما يسىء إليهم ويرفع من قدر الفرس فى المقابل.

وليت الأمر قد توقف عند شعر العرب.. فقد تعداه إلى تاريخهم أيضا.. فجاء أبو عبيدة اليهودى الأصل وغيلان الشعوبى وغيرهما ليدسوا فى التاريخ العربى ويحشوه بكل ما يخدم دعوتهم.

بل إنهم قد ذهبوا فى تزويرهم حتى إلى الدين.. فأخذوا يدسون الأحاديث على الرسول.. ويحرفون فى القرآن الكريم ويتقولون عليه.. وظهرت فئة «الزنادقة» التى عرفت بنشاطها الكبير فى هذا المجال بالذات.

وكان من نتيجة ذلك كله أن انتشر الجدل العقيم، والمناقشات الفلسفية المجدبة، وكان ذلك لأول مرة فى تاريخ الدول العربية الجديدة.

ولا يقول أحد أن «الشعوبية» كانت رد فعل طبيعى على عرقية العرب وتعصبهم.. فهذا هو الجاحظ، المفكر العربى الكبير والذى كان معاصراً لتلك الفترة يقول فى «البيان والتبيين» ينفى عن العرب أية شبهة عرقية.

«أول من عليه أن يقر بهذا: القحطانى، فإنه لابد أن يكون له أب كان أول عربى من جميع بنى آدم عليه السلام، ولو لم يكن كذلك، وكأن لا

يكون عربيا حتى يكون أبوه عربيا وكذلك أبوه وكذلك جده.. كان ذلك موجباً لأن يكون نوح عليه السلام عربيا.. وكذلك أدم عليه السلام»!!

وأردف الجاحظ موضحاً:

«والمشاكلة (الوحدة) من جهة الاتفاق فى الطبيعة والعادة «العادات والتقاليد»، ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم (العرق والجنس) نعم.. حتى تراه (الإنسان) أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه، وربما كان أشبه خلقاً وخلقاً وأدبا ومذهبا، يكون حول طبع لسانه إلى لسانهم، وباعده من لسان العجم.. أن يكون أيضا حول سائر غرائزه، وسلخ سائر طباعه فنقلها كيف أحب، وركبها كيف شاء.. ولولا أن الله عز وجل أفرد إسماعيل من العجم (غير الناطقين بالعربية) وأخرجه بجميع معانيه إلى العرب.. لكان بنو اسحق (اليهود) أولى به»!!

وخلاصة كلام الجاحظ – كما هو واضح – أن المرء لا يكون عربيا بأبيه، لأن ذلك يعنى بالضرورة. أن أباه كان عربيا لأبيه، وأن جد الجد كان بدوره عربيا لأبيه، وتظل فى تسلسلنا الأبوى حتى نصل إلى عروبة نوح وأدم، وبالتالى عروبة العالم كله، وهذا بالطبع ليس صحيحا – كما يقول الجاحظ – ولولا أن الله – كما يقول الجاحظ قد جعل إسماعيل وهو من ابوين اعجمين (غير ناطقين بالعربية) أول العرب لكان اسماعيل اسرائيليا حيث كان يحب أن يكون مثل أخوته من بنى إسحق!

هكذا نرى أن العروبة «لم تكن هى عروبة الجنس أو العرق فى تلك

الفترة.. بل كانت عروبة العادات والتقاليد واللسان (والطباع والغرائز) على حد تعبير الجاحظ.

وكانت هى عروبة «الوجه واليد واللسان» كما يقول المتنبى.. وكانت هى عروبة اللغة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف:

«ليست العربية فيكم من أب أو أم.. من تكلم العربية فهو عربى».

لم يكن من تراث العرب - إذن - ولا فى أدبهم ما يدعو إلى عروبة العصبية أو الجنس والعرق.. لذا فإن الشعوبية لم تكن رد فعل طبيعى لهذا التعصب العربى فى الدولة الإسلامية، خاصة إذا عرفنا أنه من بين الفرس أنفسهم - وأكثر من غيرهم - الوزراء والولاة والقادة، بل كانوا هم المسيطرون على الدولة فى عهد «البرامكة) ، و«السهلية» وغيرهم من الأسر الفارسية التى حكمت الامبراطورية العربية كلها فى ذلك الوقت.

ورغم ذلك فقد كان الفرس مصرين على التمايز والانفصال بدولتهم الفارسية، وهذا هو أبو مسلم الخرسانى يقول حين أخبروه بالقرار الذى أصدره الخليفة المنصور ليتولى أبو مسلم الشام ومصر «يولينى الشام ومصر..وخراسان لى»؟!

إنه لم يقبل بولايتين كبيرتين بحجم الشام ومصر فى مقابل ولاية فارسية صغيرة مثل خراسان!

نقول: لم تكن الشعوبية رد فعل لعرقية العرب وتعصبهم مع العجم

أو الفرس، والدليل على ذلك أن عددا من كبار العلماء الذين ينحدرون من أصول فارسية، رفضوا الشعوبية وفضحوا دعوتها فى كتاباتهم.

وهذا هو البيرونى – واحد منهم – يقول قولته الشهيرة فى الرد عن الشعوبيين «الهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية».

أى أن يهجره أحد بالعربية خير من يمدحه أحد بالفارسية».

ويقول الزمخشرى – وهو أيضا واحد منهم – «الحمد لله أن جعلنى من علماء العربية، جبلنى على الغضب للعرب والعصبية لهم، وأبى لى أن انفرد عن صميم أنصارهم وامتان، وانضوى إلى لفيف الشعوبية وانحاز»!

لم تكن الشعوبية إذن سوى مظهر من مظاهر الانحطاط العربى!

* * *

فى عصور القوة والازدهار.. عصور الصعود والرقى، يفخر حتى غير العرب بالانتساب إلى العرب.

وفى عصور الاضمحلال والتردى.. يسارع حتى العرب فى نفس العروبة عن أنفسهم ويقطعون علاقاتهم بكل ما يتصل بها!!

فهذا إبراهيم ابن محمد على.. مثال من عصر القوة والازدهار.. حين سأله أحد المراقبين الأجانب أثناء زحفه على تركيا: كيف يحارب الدولة التركية وهو تركى؟

يجيب إبراهيم : «أننى لست تركيا، فأننى جئت إلى مصر صبيا،

فلفحتنى شمسها، وغيرت دمى فجعلته دماً عربيا»!

وفى مناسبة أخرى سأله سائل: أين تقف فى زحفك بالجر

ويجيب إبراهيم بن محمد على الألبانى الأصل: سأمر زحفى إلى مكان لا يتكلم أهله معى بالعربية.

هذا هو إبراهيم غير العربى والذى أطلق على جيشه اسم العربى» وعلى دولته الكبيرة التى خرج ليؤسسها اسم «عربستان مثل من عصور القوة والازدهار.

أما المثل الذى أضربه من عصور الضمحلال والانحطا قاله لويس عوض، وهو عربى «الوجه واليد واللسان».. عن العربي والثقافة العربية، واللغة العربية، والحضارة العربية، وعن كل ما وهو ما توليت الرد عليه فى هذا الكتاب.. الذى لا أدعى أننى قلت ما يجب أن يقال، ولكن – ويغفر الله لى – أننى حاولت..!

سليمان الحكيم

القاهرة ١٩٧٩

وداعا بونا برت..!!

الدكتور لويس عوض رجل تستهويه الأساطير منذ باكورة حياته الأدبية والثقافية، فقد نشأ فى محافظة المنيا التى كانت عاصمة لمصر فى أحد العصور الفرعونية الغابرة، وكانت «الأسطورة» – كما هو معروف – هى محور تفكير المصريين القدماء، خاصة فى مجال الدين، الذى كان بدوره محور الحضارة المصرية القديمة.. كما يرى الكثيرون من المهتمين بعلم «المصرولوچى».

لم يكن إذن – فى هذا المناخ – غريبا أن يكون لويس عوض رجلاً اسطورى النزعة والمزاج. وقد عاش حياته – منذ باكورتها – محاولاً اشباع نزعته نحو الأساطير والاهتمام بها، ونحن نعلم إنه كان يوقع تحت مقالاته التى كان يكتبها فى صحيفة مدرسته الابتدائية باسم «العقاد الصغير» لا لشىء إلا لأن العقاد «الكبير» كان هو «اسطورة» ذلك الزمان فى مجال الصحافة والأدب الذى كان يستهوى دكتورنا فى ذلك الوقت المبكر من حياته.

وحينما كبر لويس عوض وجاء دوره للسفر إلى أوربا بغرض الدراسة والبحث للحصول على أجازة الدكتوراه اختار «الأساطير اليونانية» موضوعا لرسالته الجامعية.

وحينما عاد من أوربا كان أول ديوان شعر له أطلق عليه اسم «بلوتولاند» و«بلوتو» – كما هو معروف – موضوع اسطورة يونانية قديمة.

كما كانت أول مسرحية له تحمل اسم «الراهب» الذى لم يكن سوى شخصية فرعونية، تنتمى إلى ذلك الجو المفعم بالأساطير فى تاريخ مصر القديم.

هكذا كانت بداية رحلة الدكتور لويس عوض مع الأساطير، ولذلك لم يكن غريبا عليه أن يكتب تحت عنوان «الأساطير السياسية» مقالاً يتحدث فيه عن الوحدة والقومية العربية قائلاً أنها مجرد «أساطير سياسية» ألفنا الحياة فيها منذ عشرات السنين وأنها «أساطير نازية مهما اختلفت أشكالها» وأنها «دعوة شقاق أكثر منها دعوة وفاق» ثم أنها «هويات وهمية بلا سند من واقع أو تاريخ»!!

ونحن لن نرد هنا علي الدكتور لويس عوض فى مقاله الذى كتبه يوم ٧ أبريل ١٩٧٨ بجريدة الأهرام، ولكنا نترك الرد على لويس عوض للدكتور لويس عوض ذاته!!

ففى ١٥ ديسمبر ١٩٦٧ – وفى جريدة الأهرام ذاتها – وتحت

عنوان «نشأة الفكرة القومية» كتب الدكتور لويس عوض يقول: «كتب نابليون وهو فى منفاه فى سانت هيلانة إلى الجنرال جورجود أن الدولة العثمانية منذ أن أضمحلت أحوالها توجه التجريدات العسكرية ضد المماليك غير أنها لم تحرز عليهم نصراً، إذ كانت تنتهى كل تجريدة بالفشل والانكسار، وافضت هذه الحروب إلى تسوية تخول للمماليك حق الاستمرار فى مباشرة السلطة والحكم مع إدخال تعديلات طفيفة وقتية عليه».

ويمضى نابليون قائلاً :

«والذى يقرأ تاريخ الحوادث التى توالت على مصر فى المائتى سنة الأخيرتين (منذ عام ١٦٠٠) يوقن أنه لو عهدت تركيا إلى والى من أهل البلاد - كما هو الحال فى البانيا - دون أن تعهد إلى أثنى عشرة ألفا من المماليك لاستقلت المملكة العربية التى تتألف من أمة واحدة تخالف غيرها من الأمم مخالفة كلية بعقليتها وأحلامها ولغتها وتاريخها .. وشملت مصر وبلاد العرب وشطراً من بلاد أفريقيا، كما استقلت مراكش من قبل».

ويضيف الدكتور لويس عوض فى مقاله بأن يورد جزءاً من مذكرات نابليون التى قال فيها «تتمنى ولايات الدولة العثمانية التى لغة أهلها العربية من صميم فؤادها وقوع تغيير عظيم، وتنتظر الرجل الذى يقع هذا التغيير على يديه»!

ويعلق الدكتور لويس عوض فى مقاله على ما ذكره نابليون فيقول «هذا الكلام فى شطريه ما جاء منه عن الحملة الفرنسية على الشام ومص ١٧٩٨ - أى فى بداية حياة نابليون.. أو ما جاء منه فى منفاه - فى ختا حياته - كلام خطير الدلالة.. ونسأل لويس عوض.. لماذا يا دكتور؟ فيقو لنا وفى نفس المقال: «ليس فقط لصدوره عن رجل ألف منذ شبابه الباك أن ينظر إلى خريطة العالم فى شمولها، لا فى تفصيلها، يرى عناصر الوحدة فى المجموعات البشرية، قبل أن يرى عناصر الاختلاف، وإنم هذا الكلام خطير الدلالة لأن نابليون، وهو السياسى العملى، بقدر ما ه القائد الفاتح، ما كان ليبنى أحكامه ومشروعاته السياسية والعسكرية عل أوهام من صنع خياله، أو من صنع خيال الغير.. وما كان ليصور العال العربى فى صورة المجتمع القلق المنتظر لظهور المخلص له من براثر الاتراك العثمانيين، لولا أنه قد تجمع لديه من التقارير الموضوعي والشواهد اليقينية وشهادات المؤرخين والرحالة والجواسيس والقناصل م يثبت له أن العالم العربى كان قبل مجيئه إلى مصر، بمثابة لغم عظي ينتظر الشرارة التى تفجر، أو بركان مكظوم ينتظر «رجل الأقدار» الذي يفتح فوهته ليقذف حمم السخط والثورة على الامبراطورية العثمانية»!!

يعترف الدكتور لويس عوض - إذن - بأن القومية العربية، كانت حقيقية واقعة حتى قبل مجيء نابليون إلى مصر، ولم تكن تلك القومي

العربية «أساطير» وأوهام من صنع خيال نابليون، أو من صنع خيال غيره، على حد تعبير لويس عوض ذاته.

ثم يعود دكتورنا ليؤكد حقيقة القومية العربية على لسان فرنسى أخر هو «كلوت بك» صاحب كتاب «لمحة عامة إلى مصر».. فيورد الدكتور عوض على لسان كلوت بك ما يلى :

«ففى الشمال من جبال طوروس، الأتراك، ومن الجنوب يوجد العرب، والاختلاف بين الفريقين عظيم، وهو أعظم من جهة أجناس البلاد القاطنة بتلك الأقطار وأخلاقها ولغاتها..

و «المفهوم أن العرب قد امتلأت صدورهم بالحقد على العثمانيين، والنفوذ من سيادة الدولة العثمانية عليهم.. ولنظرة واحدة يمر بها الباحث فى التاريخ مراً سريعاً تكفى لاثبات إنه ما توفرت القوة مرة لتلك الأقطار حتى تألفت منها بانضمامها بعضها إلى بعض، مملكة مستقلة، وكان شأنها هذا لآخر مرة فى عهد الخلفاء.

** هذا ما يقوله لنا الدكتور لويس عوض من كتاب كلوت بك ليؤكد به وجود القومية العربية فى التاريخ وفى الواقع.. فى البلاد العربية.

ويعلق الدكتور لويس عوض على ما أورده من كلام نابليون بونابرت وكلوت بك فيقول :

«ليس معنى هذا أن نابليون هو الذى ابتكر فكرة البعث القومى والقومية العربية.. فقد كان الشعور القومى بحق قبله تلقائيا فى مصر وفى غير مصر بسبب وحشية الحكم العثمانى التركى»!

والأكثر من هذا أن الدكتور لويس عوض يكتب معلقاً على دولة محمد على التى يعتبرها تحقيقا لنبوءة نابليون فيقول :

«وكان هذا البعث القومى أعظم إنجاز فى ميلاد مصر الحديثة والعالم العربى الحديث»!

من نصدق إذن؟

لويس عوض ١٩٦٧.. أم لويس عوض ١٩٧٨؟!

** نصدق الحقيقة التى أقرها كلوت بك.. ونابليون «السياسى العملى الذى ما كان ليبنى أحكامه ومشروعاته السياسية على أوهام و«أساطير» من صنع خياله أو من صنع خيال الغيرَ».

كما قال لويس عوض عام ٦٧.. أم نصدق «أن القومية العربية أوهام وأساطير بلا سند من واقع أو تاريخ» كما قال لويس عوض عام ٧٨؟!

ويضيف الدكتور لويس عوض فى مقاله بالأهرام يوم ٧ / ٤ / ١٩٧٨ قائلاً :«ومع ذلك فهذه الأسطورة الانعزالية لا تقل شططا عن اسطورة أخرى هى اسطورة الاندماجية المتمثلة فى دعوة القومية العربية

التى تفرض أن شعوب المنطقة وأقوامها من الخليج إلى المحيط «أمة واحدة» وهذه الأسطورة – أسطورة العروبة تشبه أسطورة الآرية العرقية أيام النازى»!!

ويمضى الدكتور لويس عوض قائلاً:

«كل دعوة قومية تقوم على بعث العنجهية العنصرية أو العرقية بين شعوب الأرض، وتبنى مجد الأمم على سيادة جنس وتفوقه الموروث على الأجناس الأخرى، فتبرر الاستعمار والاستعباد والتمييز العنصرى.. هذه أساطير نازية مهما اختلفت أشكالها».

ثم يقول فى مقال يوم ٢٠ أبريل ٧٨ بالأهرام!

«أنا أتكلم عن القومية المصرية بوصفها شيئا مختلفاً ومستقلاً عن القومية العربية التى لا أفهمها خارج الجزيرة العربية. فهذه وحدها عندى هى الأمة العربية بأى تعريف علمى؟؟!

ولكن بأى مقياس يتحدث الدكتور لويس عوض عن «القومية المصرية» بوصفها شيئا مستقلاً عن القومية العربية؟

ويجيبنا الدكتور عوض.. بالمقاييس العرقى أو الجنسى.. وها هو يقول لنا فى مقاله السابق :

«فمعروف أن المصريين، مسلموهم كأقباطهم، تنحدر أعراقهم الأساسية عن قدماء المصريين، فإن لهؤلاء أو أولئك دماء واحدة فقد ذابت

فى البحر المصرى الكبير».

ويضيف الدكتور قائلاً:

«ومن خرافاتنا المتوارثة أننا نتحدث عن عنصرى الأمة المصرية، فالأمة المصرية ليس فيها إلا عنصر واحد يتجلى فى الأغلبية الساحقة من ابنائها أيا كان دينها، إنما خرافة العنصرين نزلت إلينا من زعم الأقباط أنهم وحدهم من سلالة قدماء المصريين، وأنهم أصحاب مصر الأصليين، ومن زعم المسلمين أنهم من سلالة العرب الشريفة، فى حين أن الانثروبولوجيا الجنسية لا تميز بين هؤلاء وأولئك فى مقاييس الجمجمة والأنوف والعظام ولا فى نسبة تجلط الدم ولا فى خواص الشعر.. إلخ.. بينما تميز فى كل هذه الخصائص السلالية بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غرب أسيا.. فى الشام والعراق والجزيرة العربية»؟؟

ثم يقول الدكتور لويس عوض موضحاً فكرته:

«الجغرافيا الجنسية تعلمنا أن المصريين منذ أقدم العصور فى الأساس سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة بالمتوسطية السمراء.. الواحدة بحسب كلام «فلاندرزبترى» من الصحراء الكبري ومن السلالة النيلية وهم غير الزنوج التى نجد بقاياها فى قبائل الشلوك والدنكا والنوير فى أعالى النيل.. أما غير ذلك ففرع لا أصول»!!

ثم يضيف الدكتور عوض قائلاً:

«وحدة العرق.. وحدة اللغة فضلاً عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الأمة المصرية سبيكة واحدة».

هذه هى العناصر التى يراها الدكتور لويس عوض مكونة لما يسميه هو «القومية المصرية» والتى تختلف فى نظره عما نسميه نحن «القومية العربية».. ولنتنظر إليها عنصراً بعد الآخر لنرى كيف جعلت من المصريين «سبيكة واحدة» ولم تجعلهم جزءاً من أمة أكبر هى الأمة العربية.

فإذا جئنا إلى اللغة وجدنا الدكتور لويس يقول «أن الأقباط ليسوا جماعة لها تقاليد لغوية خاصة، فهم يتكلمون عربية مصر العامية ويكتبون بالفصحى ويقرأون التراث العربى وهم لا يختلفون فى ذلك عن مسلمى مصر» الذين لا يختلفون بدورهم عن بقية الشعب العربى الذى ينتمى إلى الأمة العربية كلها.

ثم نأتى إلى ما يسميه الدكتور عوض «بانسجام التقاليد والثقافة» التى يعتبرها أحد العناصر المكونة «للأمة المصرية» فنجد أن المصريين - مسلمين وأقباطا - لا يختلفون فى هذه أيضا عن بقية الشعب العربى.. فنحن نقرأ مقالات طه حسين وتوفيق الحكيم ولويس عوض ذاته.. ولا نعرف أن أيا منهم هو الكاتب المصرى فلان قبل أن نرى توقيعه على ما يكتب.. كما نقرأ أشعار نزار قبانى والجواهرى أو الشابى أو محجوب، دون أن نعرف أنه سورى أو عراقى أو مصرى.. قبل أن نرى أسماءهم

على ما نقرأ لهم من أشعار.

باختصار.. ليس هناك شعر تونسى أو شعر مصرى أو عراقى.. هناك شعر عربى فى تونس وشعر عربى فى مصر والعراق، والشعر فى أى من تلك الأقطار ليس له خصائص أى قطر، فما يحمله من خصائص لا تنسب إلى قطر بعينه ولكنها تنسب إلى اللغة التى كتب بها وهى اللغة العربية.. واتحدى الدكتور لويس عوض - إذا قرأ قصيدة فى العربية أو مقالا أو قصة واستطاع أن يكتشف منها «جنسية» الكاتب الذى كتبها «إذا لم يكن اسمه مكتوبا على عمله الإبداعى.

فأنا أو غيرى من مثقفى العربية لا يستطيعون بسهولة التفريق بين كتابات حافظ إبراهيم ومطران أو بسام فريحه ومصطفى أمين. لا نستطيع التفريق بين كتابات هؤلاء جميعا كتابا وشعراء وصحفيين قبل أن نقرأ أسماءهم على مقالات أو قصائد أو قصص.

بقى لنا العنصر الأخير من عناصر القومية المصرية، وهو عنصر العرق «الذى يميز بين المصريين عامة وبين جيرانهم من شعوب غرب آسيا فى الشام أو العراق أو الجزيرة العربية» على حد تعبير الدكتور لويس عوض.

والحقيقة أن هذا العنصر بالذات ما كان ينبغى للدكتور لويس عوض - وهو الرجل الملتزم بالعلم كما نعرف - أن يتطرق إليه، خاصة

وهو يعرف ما أكده علماء الأجناس والانثروبولوجيا من أنه لا يوجد في جميع أجناس الأرض قاطبة جنس واحد يستطيع أن يدعى لنفسه النقاء الخالص، بعيداً عن بقية الأجناس البشرية الأخرى، خاصة الأقرب إليها جغرافيا، ولكن إذا كان الدكتور عوض قد تغافل عن هذه الحقيقة العلمية المؤكدة، وجرنا وراءه إلى مسألة العرق والجنس، فلابد لنا من حديث خاصة وأنه اعتبرها «المقوم الأساسي» في فكرة القومية العربية «لأن الانتماء إلى مجموعة بشرية واحدة تربطها علاقة الدم بالمعنى الواسع، طبعاً هو الذي يحدد تماسك هذه المجموعة في مجتمع واحد، ويحدد تحركها الجماعي، أو ثباتها على رقعة معينة من الأرض هي التي تعرف بالوطن، وهو الذي يعطي معنى لاشتراك أبناء هذه المجموعة المتماسكة كرجل واحد في أعمال السلم والحرب ومن جهود الحضارة والبناء واشتراكهم في المصير.. وكله ما نسميه «وحدة التاريخ»، وهو الذي يفسر ويعطي معنى لاشتراك أبناء هذه المجموعة في اللغة والدين والثقافة بوجه عام» كتب لويس عوض هذه الفقرة في مقال له بالأهرام يوم ١١ مايو ١٩٧٨.

وهكذا اعتبر الدكتور لويس عوض أن العرق هو القومية، ولا حديث عن وحدة قومية بدون الحديث عن وحدة عرقية تؤكد بقية العناصر الأخرى من لغة ودين وثقافة وتاريخ وحضارة.

ونحن نعرف أن الدكتور لويس عوض قد أقام الفرق بين القومية المصرية والقومية العربية على أساس وحدة العرق قبل أى عنصر آخر، وقال بتمايز المصريين عند العرب بصفات «معملية» مثل نسبة تجلط الدم وخواص الشعر والعظام والأنوف والجماجم!!

ولم يقل لنا الدكتور لويس عوض فى أى معمل غربى أجرى مثل تلك التحاليل غير معمل واحد هو معمل «فنلندرزبترى» الذى قال بأن المصريين سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة بالمتوسطية السمراء.

ورغم أن فرنسا مثل كلوت بك فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» قد رفض مناقشة مثل هذا «الافتراض» لأنه فى نظره «يفتقر إلى الأدلة العلمية الصحيحة» إلا أن مصريا عربيا مثل لويس عوض.. قد أخذ هذا الافتراض كحقيقة علمية وحيدة وراح يبنى عليها - دون سواها - نظريته المعروفة فيما أسماه «بالقومية المصرية» التى قال أنها تتمايز بخصائصها عن القومية العربية.

مصريون .. أم عرب؟!

يقول تيودر الصقلى - وهو من مؤرخى مصر فى العصر الرومانى: «أن المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية (اليمن) نزلوا شواطىء الصومال ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر».

وهذا أيضا .. رأى المؤرخ اليونانى الشهير «هيرودوت» الذى قال «بأن إتجاه النيل من الجنوب إلى الشمال ساعد القبائل الجنوبية على أن تلقى بنفسها فى تياره لتصل إلى مصر وتستوطنها».

ويقول المؤرخ والباحث الأمريكى الشهير «برسند» صاحب كتاب «فى العصور القديمة».. «أن سكان وادى النيل كانوا خليطا من الوافدين على مصر من أسيا الغربية ليؤلفوا المجموعة البشرية المعروفة باسم قدماء المصريين».

وهذا أيضا ما تقول به دائرة المعارف البريطانية - المجلد الثانى - وهى ليست بعيدة عن متناول الدكتور لويس عوض - الذى يجيد الانجليزية اجادته للعربية.

ويؤكد العلامة المصرى سليم حسن صاحب كتاب «مصر القديمة» أن المصريين القدماء هبطوا مصر من قلب الجزيرة العربية من الشمال – برزخ السويس – ومن الجنوب (مضيق باب المندب) والبحر الأحمر والصحراء الشرقية.

كذلك يؤكد سليم حسن – وهو أستاذ أجيال فى التاريخ المصرى القديم : «أن العصر الحديدى بدأ بدخول العرب إلى مصر والدليل على ذلك «بتاح» السامى وهو أقدم آلهة العرب»!

ويقول فيليب حتى – وهو مؤرخ لبنانى كان يعمل أستاذاً للتاريخ العربى فى جامعة برنستون الأمريكية وهو صاحب الكتاب الشهير «تاريخ العرب».

«أهل الجزيرة العربية هاجروا فى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد إلى شبه جزيرة سيناء ووادى النيل واستقروا فى مصر واختلطوا بأهلها وكان من نتيجة هذا الاختلاط أن ظهر المصريون القدماء».

ونحن ننقل عن الأستاذ محمود كامل فى كتابه «عروبتنا» العدد ٢٦١ من سلسلة «اقرأ» – دار المعارف بمصر – أن فريقا من العلماء قرر: «أن أقدم وطن للعرب الذين أرسوا قواعد لغتهم السامية هو أفريقيا، ويذهب بلجريف إلى أن أوجه الشبه الجنسية القوية بين العرب وبربر شمال أفريقيا وخاصة شكل الفك وركبة الساق إلى جانب تشابه الدم وانسجام التجاوب الاجتماعى تقود إلى النظر بأن الساميين الصميمين فى شبه

جزيرة العرب قد قدموا من أصول أفريقية وليست آسيوية (دائرة المعارف البريطانية مادة عرب ARAB).

ويتفق جيرلاند Girland مع ذلك ويقول استناداً إلى أوجه الشبه الجسدية لتكوين الجمجمة وإلى أسس لغوية «أن العرب الآسيوسسن يعودون فى مبدأ حياتهم إلى مناطق شمال أفريقيا».

بل أن جيرلاند وحدة الجنس بين أهل شمال أفريقيا والساميين العرب، وهو يرى أن الحاميين والساميين شعب واحد.

هذا ما ذكرته دائرة المعارف البريطانية فى مادة Ethnogra-phyومادة Incongraphic. كما أن Bertin ظل يدافع عن النظرية التى تقول بأن الساميين والحاميين نشأوا معاً فى أفريقيا، وأن الساميين الأفريقيين نزحوا إلى شبه جزيرة العرب عن طريق برزخ السويس واتموا مميزاتهم الجنسية الخاصة فى شبه الجزيرة العربية.

ويقرر برنتون Bsinton منذ نهاية القرن الماضى تبنى هذه النظرية، محاولاً أن يحدد بطريقة أكثر دقة المكان الذى نزح منه العرب الساميون فى شمال أفريقيا واستند إلى أن التقاليد الشعبية ودراسة اللغات المقارنة وعلم الأجناس وعلم الآثار والحفريات كلها تشير إلى وديان الأطلس فى المغرب على أنها منبع الهجرات البشرية العربية (مهد السامية - فيلادلفيا ١٨٩٠).

كما أن كين Keane يرى أن موريتانيا فى المغرب هى ا
الأصلى ومركز التفرق لا للحاميين والساميين فقط، بل لكل اا
القوقازى، وهو يقطع بذلك ويقول بأن العرب من أصل أفريقى ك
يرى أن جنوب شبه الجزيرة العربية هو أول موطن للساميين العر
هجرتهم من أفريقيا.

وهذه النظرية التى تذهب إلى أن الموطن الأصلى للعرب كا
أفريقيا لا تتعارض - كما يرى «روبنسون سميث» - مع النظرية
تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت أول موطن اسيوى لهم و
النقطة التى تفرقوا منها، فاذا كانوا قد نشأوا أصلاً فى أفريقي
النظرية التى تذهب إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت مهدهم بعد هـ
من القارة المجاورة تدعم وتقوى إلى حد بعيد.

ويقول الأستاذ محمود كامل فى كتابه السابق أن فريقا من
الأجناس ذهب إلى أن هناك أسبابا للصلة بين آسيا وأفريقيا الا
ولعله الأكثر أهمية - هو البحر المتوسط - فإذا ثبت فى التاريخ الـ
أن الإنسان كان يعيش فى حوض هذا البحر فى وقت كانت لا تزاا
الجسور الأرضية بين أوربا وأفريقيا قائمة وهو الرأى الذى يناد
«زاميت» بعد الأبحاث التى قام بها فى مالطة - فإن الفجوة التى تا
بين آسيا وأفريقيا لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت، وآسيا تتحك

شرق البحر المتوسط، والشريط الضيق الذى شقت فيه قناة السويس فيما بعد يكون وسيلة الانتقال لكثير من الشعوب التى تسكن شمال أفريقيا الآن من آسيا إلى أفريقيا.

وثانيها: الصلات بين القارتين من مضيق باب المندب، ففى الوقت الحالى قد لا يشجع الجو فى الجزيرة العربية على الهجرات البشرية إليها، ولكن من الممكن ، بل وأكثر من الممكن، أنه منذ أن سكن الإنسان هذه المنطقة كان جوها أقل قسوة.

وبعد أن استعرض هذا الفريق من علماء الأجناس رأي ايليت سميث الخاص بتسمية أهل منطقة غرب آسيا «الجزيرة العربية» الذين يسكنون شواطىء الأبيض المتوسط الشرقية وأهل العراق ومصر باسم «الجنس الأسمر» ، استطردوا فقرروا بأن هناك عدة فروع من جنس واحد. وهو الجنس الذى سماه «سميث»«الجنس الأسمر» ففى الغرب يعرف باسم «الجنس الأبيض المتوسط» وفى الوسط يعرف باسم الجنس الأسمر.

وذهب هؤلاء الانثروبولوجيون إلى أنه من المحتمل أن تكون منطقة البحر الأبيض المتوسط هى مهد الجنس الأبيض المتوسط، وعاد هؤلاء العلماء فاستندوا إلى رأى ايليت سميث القائل بأن المصريين والعرب بل والسومريين أقارب ينتمون جميعا إلى أسرة «الجنس الأسمر».

وقال هؤلاء العلماء إن رجل البحر الأبيض المتوسط قد وجد بوادى الفرات فى تاريخ بدائى قديم.. ومن التاريخ الصحيح – فى رأيهم – أن العرب الأوائل جاءوا من جنوب شبه الجزيرة العربية، وأكبر احتمال أنهم كانوا من الجنس «طويل الرأس»، كذلك كان المصريون والعراقيون من نفس الجنس طويل الرأس.

وانتهى هؤلاء الانثروبولوچيون – بعد الإشارة إلى رأى Seligman أن العنصر السائد فى أهل الجزيرة العربية هو الجنس الأسمر والأرجح أنهم أصل أهل الجزيرة كلها.

وقد قرر «ايليت سميث» فى معرض شرح أصل المصريين أن العلم الحديث المبنى على ما كشف فى مقابر النوبة، قد زوضح أيضاحا كافيا أن خلال الألف الرابعة قبل الميلاد لابد أنه كانت هناك سلسلة من شعوب تربط بينها وشائج القربى مبعثرة حول النيل وممتدة إلى جنوب مصر، فلما قويت شوكة مصر، وعظم رخاؤها تحركت تلك المجموعات البشرية الجنوبية صاعدة إلى الشمال واحدة بعد الأخرى.. وأقرب هذه المجموعات جغرافيا إلى المصريين – فى رأى.. سميث – هم العرب البدو والسوريون.

ويقول سميث أنه لاشك فى أن الشبه بين وجوه أهل ما بين النهرين القدماء ووجوه الملكية المصرية «كالشبه بين قطرتى ماء»!!

ثم يمضى هؤلاء العلماء فيشيرون إلى أننا لو توغلنا قليلا – لمعرفة

ـانت عليه الصورة فى العرب، وفى الأقوام التى قد ندرك أنها أثرت جنس القدماء المصريين – البجة والبشارية – لتبين لنا أن العرب ـون فى مصر القديمة، وأنهم بعد فتحها إسلاميا ظلوا هم العنصر ـائد.. ورغم أن المماليك والأتراك قد اغتصبوا منهم النفوذ السياسى ـنهم – العرب – ظلوا العنصر الرئيسى فى الذكاء والمقدرة فأصبح من ـن التقرير – فى نظر العلماء – بأن «مصر كلها عربية»!

وقد فحص «شانتر» بضع قبائل عربية من بدو مصر فتبين أنـه الجنس طويل الرأس، وأن البدوى المصرى لا يختلف عن الفلاحين ـباط، وانتهى إلى أنه إذا كان البدوى يشبه الفلاح المصرى والقبطى، ـان الأخيران يشبهان قدماء المصريين، فهل نستطيع – كما يقول ـر – أن نعد هذا الشعب فى الماضى والحاضر إنما يمثل مرحلتين فى ـخ مجموعة جنسية أفريقية أسيوية عظمى، هل بدو الجزيرة العربية ـرية لا يزالون يسكنون نفس الأرض التى عاش عليها أجدادهم فى ـور ما قبل الأسرات، كما يفعل أقباط وفلاحو مصر؟

إذا اجبنا على هذا السؤال بالإيجاب – كما يقول شانتر – فإن ـا أن نقر بأن شعبا ينتمى إلى الجنس طويل الرأس، طويل القامة، يعيش فى نفس الوقت فى شرق البحر المتوسط وعلى جانبى البحر ـمر، أنشا فريق منه – وهو الذى سكن وادى النيل – الحضارة المصرية

بينما احتفظ أخواتهم فى الجنس – لأسباب مجهولة – بتقاليدهـ
وحاربوا أخوتهم فى وادى النيل : Pittard Race and History

وهذه الصلات العرفية التى تجمع بين المصريين وأبنا ء
العربى، والتى أجمع عليها علماء الانثروبولوجيا تؤكدها بـعـ
الثابتة فى حضارات تلك البلاد جميعا.. فقد أخذت مصـر
بعضا من مظاهر حضارية مثل الأختام الاسطوانية، وط
بالطوب اللبن (كما يقول أحمد فخرى فى كتاب مصر الفرعو
الأنجلو المصرية).

وقد عثر على تلك الأختام فى مقابر ما قبل الأسرات و
الأسرة الأولى المصرية، وهذه الأختام الاسطوانية كانت معروفة
فى العصر الذى يطلق عليه الاثريون الآن عصر ما قبل الحضا
أى ما بين عامى ٣٧٥٠ – ٣١٠٠ قبل الميلاد، ثم يلى ذلك أ
عام ٣١٠٠ تقريبا فى جنوب العراق العصر المسمى عصـ
المبكر، وهو يقابل فى مصر الوقت الذى تم فيه توحيد البلا
حكم ملك واحد (نارمر – مينا) وبدء الأسرة الأولى.

وليس معنى ذلك أن حضارة مصر أو العراق قد بـدأ
الرابعة قبل الميلاد، فإن الحضارة فى كل من البلدين نشـ
بأكثر من ألف سنة، فالحضارة السومرية بدأت فى شمال ال

سنة ٥٠٠٠ قبل ميلاد المسيح، وذلك فى العصر المسمى بعصر «حسونة» الذى يقابل العصر التاسى فى مصر، نسبة إلى قرية «تاسا» فى محافظة أسيوط، وقد حملت تأثيرات الفن العراقى فى هذا العصر المبكر على الحضارة المصرية القديمة، بعض العلماء إلى القول باحتمال هجرة أعداد كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل.

ويقول العلامة المصرى أحمد فخرى (المجلة التاريخية أكتوبر ١٩٥٠) أنه قد عثر أيضا فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونه تأثيرات مصرية واضحة.

والآن إذا سمح لنا الدكتور لويس عوض بأن تستخدم نفس مقاييسه التى استخدمها فى الوصول إلى وحدة الجنس المصرى واختلافه عن الجنس العربى فإننا نقول بأنه، وبنفس المقاييس، وعلى نحو أسهل، نستطيع الوصول إلى وحدة الجنس بين المصريين والعرب.

فالدكتور لويس عوض يقول بأن الجغرافيا الجنسية تعلمنا أن المصريين منذ أقدم العصور، هم فى الأساس سبيكة من السلالة القوقازية المعروفة «بالمتوسطية السمراء» الوافدة بحسب كلام «فلندرز بارى» من الصحراء الكبرى.

ونحن نعلم أن «بترى» الذى اعتمد عليه لويس عوض فى تحديد جنس الشعب المصرى، يعتمد على رأى «ايليت سميث» وهو لا يقول - كما

رأينا - بأن «المتوسطية السمراء» هى الجنس الذى ينتمى إليه المصريون وحدهم، ولكن يشاركهم فيه أهالى الجزيرة العربية وسورية والعراق وشمال أفريقيا (وقد تخصص كل منهم على حدة بالقامة الطويلة فى وطنه الخاص) وأنهم جميعا كانوا من «الجنس طويل الرأس».

وكانت الأمانة العلمية تقتضى من دكتورنا لويس عوض أن يذكر ذلك.. ولكنه آثر أن يخص المصريين وحدهم - ودون العرب جميعا - «بالمتوسطة السمراء». كأنهم- وحدهم. قد خصهم الله بآدم وحواء من فصيلة المتوسطة السمراء - وخص العرب الآخرين بآدم وحواء من فصيلة أخرى.!

ولن نؤكد هنا ما قاله «سيلجمان» من أن العنصر السائد فى أهل الجزيرة العربية هو «الجنس الأسمر» فالأرجح - فى رأيه - أنهم أصل هذه الجزيرة كلها وهو نفس الجنس الذى قال لويس عوض أن المصريين ينتمون إليه.

كما أننا لن نكرر رأى «ايليت سميث» من أن أقرب المجموعات جغرافيا إلى المصريين هم العرب والبدو والسوريون، ولاشك أن الشبه بين وجوه أهل ما بين النهرين القدماء، ووجوه الملكية المصرية «كالشبه بين قطرتى ماء»!

لن نكرر ما أجمع عليه علماء الانثروبولوجيا .. ونسأل دكتورنا

سؤالاً واحداً، هل قال أحد من العلماء بأن مصر هى أصل أى جنس من أجناس الأرض؟

إن بلداً مثل موريتانيا قال عنه «كين» أنها الوطن الأصلى ومركز التفريق بين ليس فقط الحاميين والساميين بل أصل الجنس القوقازى.

ويقول «برنتون» إنه المغرب وجبال أطلس، ويقول أخرون أنه الجزيرة العربية، ولم يقل أحد مطلقاً أن مصر كانت وطنا أوليا لأى من أجناس الأرض، فى حين أن شرقها وغربها، كانت – ولا تزال – مواطن محتملة فى نظر بعض العلماء، ومؤكدة فى نظر البعض الأخر للجنس السامى، وأيا كان نصيب أحد الفريقين من الدقة فإن مصر هى «منتصف الطريق» بين شرقها الاسيوى وغربها الافريقى، ولابد للقبائل السامية (العربية) أن تكون قد عبرت منها إلى الشرق أو إلى الغرب – وبالطبع فإن مصر بنيلها الفياض وجوها المعتدل وخيراتها الوفيرة – لن تكون مجرد معبر لتلك الهجرة البشرية التى لابد وأن بعضها – بل وكثيرا منها – قد استقر فيها ومضى البعض الآخر – القليل – شرقا أو غربا.

وأيا كان الموطن الأول للقبائل السامية العربية فى شمال أفريقيا، أو فى آسيا العربية، فإن مصر ليست طرفا فى هذا الخلاف الدائر بين المدارس العلمية حول تحديد ذلك الموطن، ذلك الخلاف الذى لا يشككنا فى رأى العلماء بقدر ما يؤكد – بالنسبة لنا كمصريين – أننا عرب، بل العرب

الوحيدون – ربما – الذين ليسوا محل خلاف بين علماء الأجناس، ذلك لأنه من غير المعقول – أو المقبول أيضا – أن يكون العرب قد مروا علينا من الشرق إلى الغرب، أو من الغرب إلى الشرق، دون أن يصبغوا مصر بصبغتهم التى صبغوا بها بلاداً عن يمينها ويسارها.

فنحن نتفق إذن مع الدكتور لويس عوض فى أن وحدة الأصل هى إحدى مقومات كل قومية فى التاريخ وهى فى نظره (المقوم الأساس فى فكرة القومية العربية لأن الانتماء إلى مجموعة بشرية واحدة تربطها علاقة الدم بالمعنى الواسع طبعا هو الذى يحدد تماسك هذه المجموعة فى مجتمع واحد.. ويحدد تحركها الجماعى فى بلاد الأرض، أو ثباتها على رقعة معينة من الأرض هى التى تعرف بالوطن.. وهو الذى يفسر ويعطى معنى لاشتراك أبناء هذه المجموعة المتماسكة كرجل واحد فى أعمال السلم والحرب وفى جهود الحضارة والبناء واشتراكهم فى المصير وكل ما نسميه «وحدة التاريخ» وهو الذى يفسر ويعطى معنى لاشتراك هذه المجموعة فى اللغة والدين والثقافة بوجه عام).

نتفق مع الدكتور لويس فى كل ذلك.. فهل يتفق هو معنا فى أن المصريين ليسوا جنساً قائما بذاته، وإنما هو جزء من جنس أكبر هو الجنس العربى؟

لسنا نحن الذين نقول ذلك أو «نتوهمه» أو نخلقه كما تخلق

«الأساطير» و«أحلام اليقظة» - كما يتهمنا الدكتور عوض - ولكنه رأى علماء ليسوا من العرب، بل أن أغلبهم ينتمى إلى دول معادية لما ندعو إليه من وحدة عربية مثل أمريكا وانجلترا وفرنسا وغيرها من بلاد الغرب، ولكن حيادهم العلمى جعلهم يقولون الحقيقة حتى وأن خالفت رغبتهم وكان أولى بالدكتور عوض أن يحذو حذوهم فى الحياد والأمانة العلمية. ولو كان هؤلاء قد رأو الشواهد العلمية تقف ضد «ادعاءاتنا» ولا نقول - دعواتنا - بقومية عربية، ووحدة عربية ولو بنسبة ضئيلة، ما كانوا قد ترددوا ولو للحظة واحدة فى الاعلان عن رأيهم الذى يستندون فيه - حينئذ - إلى العلم والحقائق العلمية لتقويض دعائم وحدتنا التى ندعو إليها، ولكنهم يؤكدون فى كل لحظة، على أن العرب - بما فيهم المصريون - ينتمون إلى جنس واحد.. يقولون ذلك لأنه ليس رأيهم بل هو رأى العلم الذى لا يعرف التحيز الذى تعرفه دهاليز السياسة.

الوحدة العرقية هى المقوم الأساسى فى الفكرة القومية، فى نظر دكتورنا لويس عوض، وقد أثبتها للمصرين - مسلمين ومسيحيين - ولم يحاول اثباتها للعرب - مصريين وغير مصريين - وتجاهل أنها مسألة علمية لا تتوقف على مزاج الأشخاص - أيا كانوا - ولا ترتبط بنواياهم - حسنة أو سيئة.

ويقول الدكتور لويس عوض - الذى يفخر كثيراً بالحضارة

المصرية القديمة – إن الحضارة بالمعنى الحقيقى لم تبدأ إلا باستقرار القوميات فى أوطان ثابتة (الأهرام – ١١ مايو ١٩٧٨).

وهذا صحيح جداً – بل هو الشىء الوحيد الصحيح فيما يختص بنشأة الحضارات.. ولكن بماذا يفسر دكتورنا بدء الحضارة المصرية والعراقية فى وقت واحد تقريبا.. وبماذا يفسر هذا التشابه الكبير بين الحضارتين.. هذا التشابه الذى اثبته الدكتور أحمد فخرى وغيره من علماء الحضارات القديمة.. الذين أجمعوا أيضا على أن هذا التشابه لا يعود فقط إلى مجرد توارد الخواطر.. بل يعود إلى روابط عرقية ودموية تمت بين الحضارتين.

ألا يعنى ذلك فى نظر استاذنا لويس عوض أن الحضارة العربية لم تبدأ إلا باستقرار العرب فى أوطان ثابتة. فكانت مصر والعراق – لما لديهما من عوامل الثبات والاستقرار التى نعرفها – أول تلك الأوطان؟

إن الدكتور عوض يقول أنه (أول من يتمنى أن تصفى دعوة القومية العربية من فكرة الوحدة العرقية) فى الوقت الذى لم يذكر فيه واحد من مفكرى القومية العربية شيئا عن العرق العربى، بينما نقرأ ما قاله دكتورنا دفاعاً عن وحدة العرق المصرى والقومية المصرية (لأن وحدة العرق ووحدة اللغة فضلاً عن انسجام التقاليد والثقافة تجعل من الأمر المصرية سبيكة واحدة).

وهكذا يهاجم لويس عوض العرقية بمعناها العربى التى لم يقل بها أحد، ويدافع عن العرقية المصرية التى لم يقل بها غيره.

إن رفض الدكتور للقومية المؤسسة على العرق والجنس كان أولى به أن يمتد ليشمل القومية المصرية، لا أن يقول بها ويدعو إليها.. وهو الذى كان يجب أن يدعو إلى القومية العربية التى لم يقل أحد من مفكريها الكبار - أو الصغار - أنها تقوم على أساس من الدم العربى، وما قلناه نحن هنا لم يتعد مجال الرد على الدكتور لويس عوض الذى عاد فأكد على أن وحدة العرق هى المقوم الأساسى للفكرة القومية».

وكان هدفنا من وراء ذلك هو ترديد ما قاله العلماء - غير العرب - مؤكدين على توفر «العنصر العرقى» للقومية العربية، لعلنا بذلك نكسب دكتورنا الكبير لويس عوض إلى صف دعوتنا القومية العربية بعد أن تكون قد حققنا شرطه لصحتها بوحدة العرق أو الجنس.

ربما لا يرضى الدكتور لويس عوض عن كلام العلماء لأنهم يخالفون رأيه.. فماذا يقول فى كلام المؤرخين، خاصة إذا كان العقاد - وهو أستاذ دكتورنا ومثله الأعلى منذ الصغر - واحداً منهم.

يقول العقاد فى كتابه «عمرو بن العاص» «إنه قد سلك إلى مصر طريقاً بدويا يستطيعه البدو واستطاعوه فى قديم الزمان، ولا يزال سكانه منذ عرف التاريخ بدواً، يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد.. وإن

العرب كانوا يسكنون مدينة «قفط» قبل الإسلام، وقال «سترابون» أن نصف سكانها منهم وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة إلى هذه المدينة القديمة التى كانت فى طريق الحجاز». ويضيف العقاد قائلاً: إن العرب هم أول من تسموا بالمصريين «الاقباط» ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم.

أى أن العرب – نصف سكان مدينة قفط – كانوا «أقباطا» مثلهم مثل المصريين فى تلك المدينة القديمة.. كما يقول العقاد:

«ونحن نعرف أن لليشموريين – من العرب – فى شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور، إذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية واودية الجنوب، وكانوا عربا منحدرين على أرجح الأقوال من سلالة «العمالقة» الأقدمين، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين كما عاونهم عرب الصحراء فى الشام، على اختلاف العقيدة والمقام.

وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة يشموريه.. علمنا أن أقسام البادية العربية لم تتغير كثراً من قديم الزمن.. وأن عمرو بن العاص – كما يذكر العقاد – قصد إلى الفيوم قبل فتح مصر، وكان على علم باصول هذه السلالة.

ويذكر العقاد – فى نفس الكتاب – أن الإسلام يأتى وسيناء ينزل على حدودها ويمتد إلى بعض نواحيها الشرقية قبائل كهلانية من غسان

ولخم وجذام.. فلما امتدت الفتوحات الإسلامية شمالاً كان لابد أن يتفرق النصارى من أولئك العرب ومنهم غالبية غسان، فنزل جزء منهم أرض الجفار فى شمال سيناء حتى كان منهم حكام «تنيس» نفسها على البحر المتوسط، وقد ذكر مؤرخو الفتح الإسلامى لمصر كيف أن الحصون على طريق الرمل الشمالى فى سيناء ورفح والعريش والواردة والبقارة وغيرها قد سكنها قوم من هؤلاء العرب يؤدون المال «للمقوقس»، كما ذكروا أن النجدة التى أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سيناء لمساعدة عمرو بن العاص، قد قابلت جمعاً هائلاً يقرب من ثلاثة آلاف، سألوهم فإذا هم من عرب غسان ولخم وعاملة.

ويقول المقريزى فى «المواعظ» أنه قبل الفتح الإسلامى كانت هناك قبائل عربية من الأنباط وغسان وجذام ومن بطون خذاعة فى الأسكندرية وتنيس والمنطقة الشرقية من مصر.

ويذكر جورجى زيدان فى كتابه «العرب قبل الإسلام» أن الأقسام الشرقية من مصر «بين النيل والبحر الأحمر» كانت آهلة منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعدد من القبائل العربية التى وصلت إلى جنوب مصر وشمال السودان.

وتذكر الآثار الفرعونية أن فرعون مصر قد إذن لقبائل «ادوم» بدخول مصر والإقامة فى شرق الدلتا.

ويقول المؤرخ الأمريكي «بُرسند» صاحب كتاب «العصور القديمة».. «أن الاختلاط بين السوريين والمصريين في عهد رمسيس الثاني قد أخذ في الازدياد، وأصبح السوريون نوى شأن عظيم في البلاد ودواوين الدولة، وزوج الملك ابنه إلى أبنة ضابط بحري من سورية.

وفي عهد الدولة الحديثة وفدت إلى مصر جماعة من الكنعانيين العرب وأقاموا بجوار «أبو الهول» وأطلقوا عليه اسمه، واعتبروه رمزاً لهم.

ومن الأنبياء جاء إلى مصر إبراهيم ويوسف وعيسى، كما ذهب النبي موسى المصري في الطريق المعاكس.. إلى أرض مدين العربية وتزوج بواحدة من بنات شعيب النبي العربي المعروف.

وفي مصر تزوج إبراهيم من هاجر، ويوسف من ابنة أحد الكهنة المصريين.

كما ذهب سنوحي المصري في عصر الدولة الحديثة، إلى لبنان وتزوج من هناك وأنجب عدداً من الأبناء، والذي يقرأ قصة «سنوحي» يعرف أنه كان يعيش في بلاد الشام كزعيم من أبنائها وليس أجنبيا من بلد أجنبي، وهو ما جعله يبقى هناك أكثر من ربع قرن قبل أن يقرر العودة إلى مصر في نهاية حياته.

ويذكر المؤرخون أن أم امنمحتب الثالث - فرعون مصر - كانت عراقية.. وزوجة رمسيس الثاني (نفرتيتي) كانت سورية.

وقد تزوج امنمحتب الثالث نفسه من اميرات بابليات واشوريات .. وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات كجزء من الجزية.. كما يقول العلامة أحمد فخرى فى كتاب (مصر الفرعونية).

وبقى أن نعرف أن امنمحتب الثالث هذا هو أبو امنمحتب الرابع الذى عرف فى التاريخ باسم «اخناتون» أول من دعا إلى عبادة الله الواحد فى تاريخ البشرية.!!

وهكذا... وكأن الله يأبى إلا أن يشارك العرب جميعاً فى الدين كما فى الحضارة، فكانت أم اخناتون المصرى عراقية، وكانت زوجة إبراهيم – أبى الأنبياء – مصرية، وكانت زوجة سيدنا يوسف مصرية، وكانت زوجة موسى فلسطنية، وكانت زوجة محمد مصرية.. وجدته هى هاجر المصرية.

وهكذا ارتبطت ديانات التوحيد فى تاريخ البشرية منذ اخناتون وحتى محمد بروابط عربية مشتركة، وكان رباط الدم والعرق.. جنبا إلى جنب مع رباط الدنيا.

إذن لم يكن الفتح الإسلامى لمصر فتحا عربياً عرقياً، بل كان فتحاً دينياً.. لهذا فإن تعبير الفتح العربى الذى يستخدمه الدكتور لويس عوض وغيره، ليس هو التعبير الصحيح الذى يمكن أن يوصف به دخول الإسلام إلى مصر.. ولكن «الفتح الإسلامى» هو التعبير الصحيح الذى

يتناسب مع حقائق التاريخ. إذ أن العرب لم يفتحوا مصر مسلمين.. بل فتحوها قبل ذلك بمئات السنين، فتحاً سلميا طبيعياً، دفعت إليه ظروف الحياة، وسهلت له الوحدة الطبيعية والتاريخية، بل والعرقية إلى حد بعيد.

وقد جاء العرب – مع الإسلام – محررين لجزء مغتصب من وطنهم الكبير الذى كان يحتله عدو أجنبى يتمثل فى الرومان واليونان. ويذكر الأستاذ محمود كامل فى كتابه «عروبتنا»: أن الأمر قد استقر لعرب الحجاز فى مصر، الأرض التى سبقهم إلى الاتصال بها والهجرة إليها، والوفود عليها والإقامة فيها منذ عصر ما قبل التاريخ، العرب من أكاديين واشوريين وكلدانيين وعاموريين وادوميين وكنعانيين وفينيقين وانباط وتدمريين،وعماليق.

ولعل هذا الامتزاج التاريخى الطويل بين غرب آسيا وشمال أفريقيا قد جعل أهل المنطقة كلها شعبا واحداً.. يحس بشعور واحد متجاوب، هو الذى جعل أقباط مصر من (المسيحيين) يستقبلون قدوم المسلمين العرب بمثل هذا الترحاب الذى تحدث عنه المؤرخون، رغم اختلاف الدين بينهم، بينما وقف هؤلاء المسيحيون المصريون قبل ذلك بقليل، موقف عدائيا جباراً من حكامهم المسيحيين البيزنطيين عام ٤٥١ ميلادية حين عينوا أحد أعوانهم – بروتيريوس – خلفا له، فى كرسى الكنيسة بالاسكندرية، ويذكر لنا المؤرخون أن المصريين رفضوا الرضوخ لذلك

واختاروا مصريا لتولى الكرسى البابوى هو «تيمبوتاوس»، ولما عزل بالقوة اشتعلت الثورة وكاد يجهز المصريون على الأسكندرية كلها، ثم اغتالوا بروتيريوس صنيعة الأجانب، وجروا جثمانه فى طرقات الاسكندرية، ورفضوا أن يدفن فى أرضها، فأحرقوه وذروه رماداً فى الهواء».. هذا هو موقف أقباط مصر من المحتل الأجنبى الذى يشاركهم فى الدين.. وهو عكس موقفهم من المسلمين العرب الذين يشاركونهم فى العرق والتاريخ والمصير.. فقد أصدر بطريرك الأسكندرية أوامره إلى كل المسيحيين المصريين بألا يقاوموا المسلمين كما يذكر «كيرك» فى كتابه «التاريخ المختصر للشرق الأوسط». وموقف المسيحيين المصريين من المسلمين العرب.. هو ذاته موقف مسيحى سورية الذين عاونوا الجيوش الإسلامية القادمة ضد البيزنطيين الذين كانوا مثلهم على المسيحية، ولكنهم كانوا يختلفون عنهم فى كل شىء.. وأولها العرق والجنس والدم!!

ونحن لا نستطيع أن نقتفى هنا أثر القبائل العربية التى نزلت إلى مصر بعد الفتح الإسلامى لها.. فهذا بالإضافة إلى كونه امراً صعبا.. فهو ليس مجالنا، ولكننا نكتفى فقط بمثال واحد أورده المقريزى فى «المواعظ والاعتبار» وهو يبين إلى أى مدى وصل سيل الهجرات العربية إلى مصر فى وقت قصير.. يقول المقريزى :

«إن عبد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال : ما أرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان (بطنان من قبيلة قيس) فكتب إلى هشام: أن أمير المؤمنين أطال الله عمره قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم، وأن قدمت إلى مصر ولم أر لهم حظا إلا ابياتا من فهم، وفى مصر كور (مدينة) ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا، وهى بلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل.. فكتب إليه هشام: أنت وذاك.. فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت (أسرة) من بنى نضير، ومائة أهل بيت من بنى سليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة والعشور فصرفها إليهم، فأشتروا إبلاً، وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب العشرة دنانير وأكثر، ثم أمرهم بشراء الخيول، فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث شهراً حتى يركب، وليس عليهم مؤونه فى علف أبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تجمعوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة ألف بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة فأتاهم نحو خمسمائة أهل بيت، فصار فى بلبيس ألف وخمسمائة ألف بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى المصرى، مالت إليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة ألف أهل بيت، ثم

تولدوا، وقدم عليهم من قدم من البادية».

هذا مثال صغير لما كان عليه أمر هجرة القبائل العربية إلى مصر، ولنا عليه عدة ملاحظات تبين مدى اتساع تلك الهجرات:

أولها: إن والى مصر بن الحبحاب يستغرب أن قبيلة قيس ليس لها حظ كبير فى الهجرة إلى مصر، إلا لناس من جديلة وفهم.. رأى الوالى أنهما لا يمثلان «قيس» تمثيلاً حقيقيا فى مصر، وهو ما يعنى أن كل القبائل العربية كانت لها فى مصر بطون وعائلات كثيرة تمثلها إلا قبيلة قيس؟ ولو كانت هناك قبيلة غير قيس لا تمثل فى مصر بكثرة لطلب والى مصر من الخليفة أن يمثلها.

ثانيا : أن والى مصر يستغرب أن هناك كوراً (مدينة) ليس فيها أحد من العرب وهى بلبيس، الأمر الذى يعنى أن كل المدن المصرية كان فيها من العرب ما يكفى إلا مدينة واحدة وهى بلبيس.

ثالثها : أن والى مصر فى الفسطاط والخليفة فى دمشق كان يعنيهما ألا يضر نزول القبائل العربية بأهل المدن من المصريين «وليس يضر بأهلها نزولهم معهم» وهو ما يعنى أن نزول العرب إلى القرى والمدن المصرية لم يكن على حساب المصريين.

رابعها: أن القبائل المستقرة فى مصر كانت تساعد القبائل العربية الوافدة إليها مما شجع على الهجرة إلى مصر بتلك الأعداد الكبيرة فى

فترة وجيزة.

وقد استمرت القبائل العربية فى الهجرة إلى مصر حتى نزول الفاطميين بها.. الذين رأوا فى القبائل العربية المستقرة على حدود مصر الشرقية مصدر خطر على حلمهم الجديد فى شمال الوادى وشرقه فشجعوا على انتقالها إلى داخل مصر.

ونرى الخليفة الفاطمى العزيز بالله يدعو بطون قيس من بنى سليم وبنى هلال، ونرى الناصر للدين وزير المستنصر يدعو بطون طىء التى كانت تعسكر حول غزة من جنوب فلسطين ويسهل لهم الاستقرار فى مديرية البحيرة. وقد شجعت هجرة بطون أخرى فتزايد عدد العرب الذين انتقلوا إلى مصر فى عهد الفاطميين.

وقد تغير مركز سيناء ابتداء من القرن الرابع عشر، كما يذكر المتوفرون على تاريخ هذه المنطقة من المؤرخين، فأصبحت منذ ذلك التاريخ منطقة تلجأ القبائل العربية إليها وتستقر بها بعد أن كانت مجرد جسر تعبره تلك القبائل إلى وادى النيل.

ويذكر المؤرخون أن الهجرة العربية لم تنقطع، فقبيلة طىء لم تظهر فى مصر إلا فى أواخر القرن الثانى، وكانت الهجرة المهمة لربيعية فى زمن المتوكل العباسى (٢٤٧ هجرية) وكان أن ذهبت إلى أعالى الصعيد لتلحق بالقبائل العربية التى سبقتها إلى هناك.

وهاجرت جماعة من كنانة (الحجاز) فى أواسط القرن الرابع الهجرى.

كما أن الموجة الهلالية التى عبرت مصر فى القرن الخامس فى طريقها إلى المغرب، تركت جماعات كبيرة منها شرق النيل بين الحوف والصعيد.

وهكذا انتشرت القبائل العربية فى مصر بين الأسكندرية والصعيد، بل ذهب بعض قبائل جهنية إلى حدود النوبة ،ساهموا فى تحويلها إلى العروبة والإسلام. وذهبت ربيعة إلى أعالى الصعيد واتصلت بقبائل البجة.

هذا عن هجرة القبائل الكبيرة، أما هجرة العائلات والأسر. وهى كثيرة - فلم يهتم أحد بتسجيلها نظرا لعدم ضخامتها.

ونحن نعرف أن الولاة الذين كانوا يعينون فى مصر من قبل الخلفاء، ما كاد يستقر بهم الأمر حتى يرسلوا إلى قبائلهم فى البادية طالبين منهم اللحاق بهم فى مصر.. ويروى المؤرخون أن عبد العزيز بن مروان قال لأبيه حين ولاه لشئون مصر «يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس بها أحد من بنى أمى»؟!

ويرى المقريزى أن انتشار العرب فى القرى وعملهم بفلاحة الأرض، كان العامل الحاسم فى انتشار الإسلام فى ربوع مصر: فهو يقول فى

الموعظ.

«لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، عندما أنزل عبد الله بن الحبحاب مولى سلول قبيلة قيس بالحوض، الشرقى (محافظة الشرقية) فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواجعها».

وانتشر الإسلام بين المصريين بسرعة هائلة حتى أن أربعة وعشرين ألف مصرى أشهروا إسلامهم فى يوم واحد، حينما صدر وعد من والى مصر حفص بن الوليد (٧٤ هـ) بإعفاء كل من يدخل فى الإسلام من الجزية، وحينما يرى والى مصر فى عهد عمر بن عبد العزيز تدهور حصيلة الضرائب (الجزية) نتيجة دخول المصريين فى الإسلام يطلب من الخليفة أن يبقى على الجزية على المسلمين الجدد حتى لا تتأثر خزينة الدولة فيرفض عمر بن عبد العزيز ويرسل إليه قائلا عبارته الشهيرة: «قبحك الله.. إن الله قد أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابيا»!!.

نظرية البزرميط..!!

وقد ساهم انتشار الإسلام بين المصريين فى عملية اختلاطهم بالعرب الجدد.. واختلاط العرب بهم بالمصاهرة والتزواج، وكان مما ساعد على ذلك أيضا نهى الدين الجديد عن تفاخر العرب بأنسابهم، وتمسكهم بقبليتهم، مما كان يساعد على التقوقع والانعزال.. كذلك ما يتسم به الإسلام من سماحة واعتماده معيار التقوى والعمل الصالح بدلاً من معيار النسب وصلات الدم.

وكان من نتيجة ذلك أن أصبح المجتمع المصرى فى ستين عاماً فقط من بداية الفتح الإسلامى، مجتمعا عربيا واضحاً، لا يختلف - كما يروى ابن الحكم المؤرخ المصرى فى «فتوح مصر واخبارها» عن مجتمع المدينة أو دمشق أو بغداد.

وظهرت عوامل الإنسجام والتجانس فى المجتمع المصرى منذ وقت مبكر، حتى أن المصريين - مسلمين وأقباطا - اشتركوا معاً فى ثورة

٢١٦ هـ.. مما يدل على التجانس بين المصريين وتبلورهم الوطنى المبكر.

وانتشار اللغة العربية فى فترة وجيزة - يدل على أنها لم تكن لغة أجنبية يتعلمها المصريون لأول مرة، كما يدل على أن ألف سنة من الاحتلال اليونانى والرومانى لمصر لم تفلح فى محو الشخصية المصرية التى تتسم بسامية واضحة المعالم فى اللغة والثقافة والعادات والتقاليد، تلك السمات التى ظلت محتفظة بجوهرها الأصيل تحت قشرة «هلينية» خفيفة ازاحها العرب الجدد القادمون إلى مصر فى فترة قياسية إذا ما قيست بعمر الاحتلال الهلينى لمصر.

ونحن نعرف أن انتشار العربية لم يتلازم مع انتشار الإسلام، ويؤكد لنا المؤرخون أن اللغة العربية أصبحت بعد مالا يزيد عن مائتى عاماً فقط هى لغة المخاطبة بين المسيحيين فى الشارع، كما أصبحت هى لغة الكنيسة بعد أن أصبح المؤلفون المسيحيون يكتبون باللغة العربية.. وهذا هو سعيد بن البطريق يؤلف كتابه فى التاريخ باللغة العربية، فى القرن العاشر، وكذلك ساويرس بن المقفع الذى جمع وثائق تاريخ البطاركة وترجمها إلى اللغة العربية، ويذكر فى مقدمة كتابه أن اللغة العربية أصبحت لغة الشعب القبطى إذ يقول «فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوان المسيحيين، وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم

ديار مصر، لعدم اللسان القبطى واليونانى».

هكذا لم تعد اللغة العربية هى لغة المسلمين فقط، بل لغة المسيحيين أيضا، وذلك فيما لا يزيد عن مائتى عام من الزمان بينما لم تفلح ألف سنة من الاحتلال اليونانى والرومانى إلى تحويل المصريين إلى اللغة الإغريقية.

ونحن نعلم أن المصريين لم «يترومنوا» أى لم يصبحوا رومانيين، ولكن الذى حدث هو العكس تماماً.. إذ أن الرومان هم الذين تمصروا»! وأصبحت عبادة «ايزيس» المصرية رائجة فى الشرق الأوسط واليونان وإيطاليا، بالرغم من مقاومة القناصل لها، ثم اضطر القيصر لقبولها، وجاء أغسطس ليحرمها، ثم جاء أورليان ليجعل من عبادة ايزيس المصرية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية كلها، وقد انتقل البلاط السياسى البطلمى بأكمله، بعد البطالمة الثلاثة الأول من الأسكندرية إلى ممفيس حيث مقر الكهنة المصريين الذين كانوا يتولون تتويج الحكام البطالمة، وفقا للطقوس المصرية على طريقة ايزيس.

ورغم التمصر الواضح الذى أبداه حكام اليونان والرمان إلا أن المصريين ظلوا ينظرون إليهم على إنهم أجانب يختلفون عنهم فى كل شىء، رغم تدين هؤلاء بالديانة المصرية السائدة، ونحن نعرف ما للدين من قوة فى مصر القديمة، إلا أنهم ظلوا ينظرون إليهم كمحتلين،

واستمروا فى مقاومنهم خاصة فى مدن الصعيد والدلتا، حتى اضطر البطالمة إلى هدم العاصمة «طيبة» أمام قسوة وعنف الثورة فى عام ٢٨٨ ق. م.

وموقف المصريين أمام الرومان كان أعنف من موقفهم أمام البطالمة، خاصة بعد ظهور المسيحية، واتخاذ الكنيسة المصرية مذهبا يخالف كنيسة الرومان، وكانت تلك المخالفة الدينية انعكاساً لاختلافات ثقافية وعرقية وحضارية واضحة.

وحينما يأتى العرب المسلمون نرى القس «يوسف نقيو» وهو المؤرخ القبطى الوحيد الذى أرخ للفتح الإسلامى يتشفى فى هزيمة الرومان أمام المسلمين، ويرجع ذلك إلى تنكيل الرومان بالمسيحيين المصريين. وهكذا نرى أن وحدة الدين أيام البطالمة لم تمنع المصريين من النظر إليهم كمحتلين، كما لم تجعل المسيحيين المصريين فى عهد الرومان ينسون أن أولئك المحتلين غرباء عنهم فى كل شىء، حتى وإن كانوا يدينون بالمسيحية مثلهم.

أما اختلاف المصريين فى الدين مع العرب الفاتحين، لم يمنعهم من الترحيب بهم ونصرتهم على بنى ملتهم من الرومان، ذلك لأنهم يرتبطون معهم بقومية واحدة، لها خصائص حضارية وثقافية وتاريخية واحدة.. وهذا من أهم - بل أهم - العوامل التى أسرعت بخطى المصريين نحو

مواصلة المسيرة العربية فى اللغة والثقافة والحضارة والتاريخ، بعد أن أعاقتهم عشرة قرون من الاحتلال الأجنبى الأوربى لأرضهم.

ولعل ذلك يفسر لنا كيف انتشرت اللغة العربية جنبا إلى جنب مع الإسلام، فى خطين متوازيين وفى فترة وجيزة، بينما أخذت الشعوب الأخرى مثل الفرس والاتراك من العرب إسلامهم ولم يأخذوا منهم اللغة.. التى كانت بالنسبة لهم تعنى محو شخصيتهم بالكامل وتحويلها إلى شخصية مختلفة.. أما فى مصر فلم تكن العروبة والعربية شخصية أخرى مغايرة.. بل كانت عودة إلى الهوية الصحيحة التى أفقدتهم أياها قرون الاحتلال العشرة.

يقول الدكتور لويس عوض (الأهرام ٧ أبريل ١٩٧٨):

«اسطورة الانعزالية إذن لا تقل شططا عن الدعوة إلى الوحدة الاندماجية الكبرى القائمة على العروبة العرقية أو العنصرية الملتهمة لكافة القوميات بالمنطقة».

«فالعروبة العرقية لون من ألوان النازية.. يقوم على أحد ثلاثة افتراضات كلها سقيم».

١ - أما أن الفتح «العربى» لدول المنطقة من المحيط إلى الخليج جاء إلى دول خالية من السكان فأقام فيها محلات ومستوطنات عربية الأعراق حيثما مشت جيوش العرب أيام بنى أمية وبنى العباس.. وهو

قول هراء، لأننا نعلم أن الفتح العربى جاء على أقوام وشعوب غزيرة السكان رغم ضعفها السياسى والعسكرى وخضوعها لروم المشرق وروم المغرب.. بل أقوام وشعوب أكثر كثافة من العرب الفاتحين أنفسهم وأقدم حضارة».

ورداً على هذا الافتراض، نقول بأن لدى الدكتور لويس مشكلة هى التى وضعت أمامه مثل هذا الافتراض الخاطىء أو «الهراء» ولسنا نحن الذين افترضنا ذلك.

ومشكلة الدكتور عوض تتمثل فى أنه لا يريد التسليم بوحدة الجنس العربى.. وهى حقيقة علمية تاريخية لم يقف فى وجهها عالم واحد من علماء الانثروبولوجيا ليبرر لدكتورنا موقفه العنيد.. أنه يؤمن باعراق كثيرة وقوميات متعددة وشعوب مختلفة فى المنطقة التى نطلق عليها اسم الوطن العربى.. وهو ما لم يقل به واحد من العلماء بما فيهم «فنلندرزبترى» الذى استشهد به دكتورنا للتدليل على أن الشعب المصرى «سبيكة واحدة».. لقد قال بترى ذلك وهو صحيح ولكنه لم يقل بأن هذه السبيكة «وحيدة».. قال أنها سبيكة واحدة ولم يقل أنها وحيدة كما يقول الدكتور لويس عوض» فالشعب المصرى لا يمثل جنساً فريداً بذاته «هبط من السماء» أو انشقت عنه الأرض، بل هو شعب ينتمى إلى هذه الأرض التى تمتد عن شماله ويمينه.. وهذا ما يؤكده العلم ويسانده.

أما القول بأنه «سبيكة واحدة وحيدة» فإنه القول «الهراء» فى نظر العلماء والمؤرخين، وهم لازالوا يؤكدون فى كل لحظة أنه لا يوجد على وجه الأرض ذلك الشعب الذى يستطيع أن يدعى لنفسه النقاء الجنسى الخالص بمعزل عن جيرانه من الشعوب الأخرى.

ولذا فإننا لا نقول أو نفترض أن الفتح الإسلامى - الفتح العربى فى نظر الدكتور عوض - لدول المنطقة من المحيط إلى الخليج، قد جاء إلى دول خالية من السكان فأقاموا فيها محلات ومستوطنات عربية الأعراق، بل جاء الإسلام على شعوب كثيفة ومتحضرة، ولكنها ليست شعوبا من جنس، آخر تختلف عن الشعوب القادمة حديثا،.. فهى كلها - القادمة والمقيمة - تنتمى إلى جنس واحد هو الجنس السامى، وأن الشعوب المقيمة لم تكن أحق بالإقامة والاستقرار على الأرض من الشعوب القادمة حديثا، لأنها كلها - قديمة وحديثة، وافدة من مواطنها الأصلية سواء أكانت فى الجزيرة العربية، أو فى شمال أفريقيا أو الصحراء الكبرى.

ولننظر هنا إلى رأى «توينبى» عميد المؤرخين كما يطلقون عليه:

«وقد ولدت الحضارة المصرية - كما ولدت الحضارة السومرية - استجابة لتغير فى المناخ يظن أنه اعترى أفريقيا وآسيا بعد زوال العصر المطير، وهو ما يقابل العصر الثلجى فى أوربا، فقد غاضت مياه النهرين واستحالت المراعى العشبية التى كانت تشرف على وادى النيل الأدنى إلى صحراء، هى الصحراء الليبية فتغلغل الرواد الجرئيون فى مستنقعات

وادى النيل وأدغاله التى لم تطأها قدم إنسان من قبل، كما تغلغل أخوانهم فى الوادى الأدنى لدجلة والفرات.. واستطاعت جهود الإنسان أن تتحكم فى خصوبة الطبيعة المسرفة، وكان الإقليم موحشا خلوا من السكان، أشبه الأشياء فى منظره بإقليم السدود فى بحرى الجيل والزراف بالسودان.. وكان لزاماً على أهل مصر أن ينتقلوا، لأن موطنهم الذى كان غنيا بالمراعى الطيبة كان يتحول إلى صحراء جرداء، وعظمة الاستجابة التى استجاب بها المصريون لصرامة التحدى هى التى تضفى على التاريخ المصرى دلالة الحقيقية». (جيمس اكموتى – مكانة مصر فى كتاب توينبى – المجلة التاريخية المصرية – أكتوبر ٥٨).

وخلاصة رأى توينبى فى هذا الموضوع: أن الظروف الطبيعية كانت هى التحدى الذى واجه المصريين القدماء.. وأن الهجرة وتغيير الموطن كانت الاستجابة التى واجهوا بها هذا التحدى، وهى الاستجابة التى تضفى على التاريخ المصرى دلالته الحقيقية – فى رأى توينبى. وهكذا نرى أن توينبى يؤكد أن المصريين القدماء قد جاءوا إلى مصر من مكان أخر، هاجروا إليها. فكانت هجرتهم هى الاستجابة العبقرية لتحدى الظروف الطبيعية، كما يرى توينبى.

إذن فقد جاء المصريون من نفس المكان الذى جاء منه العرب، وإلى نفس المكان الذى جاء إليه المصريون القدماء، مصر، وحينما جاءوا لم يقيموا «فى محلات ومستوطنات عربية الأعراق» كما يقول الدكتور عوض.. متصوراً العرب وكأنهم أقلية تعيش فى «جيتو»، ولكنهم جاءوا فى

موجات جديدة، لتجديد دم مصر العربى بعد أن كادت عشرة قرون من عمر الاحتلال الأجنبى تستنزف آخر قطرة فيه، وانتشر العرب فى قرى مصر ومدنها وصحاريها - كما يروى المقريزى وابن الحكم - واختلطوا وتزوجوا وزوجوا حتى أن ابن عبد الحكم يصف العرب القادمين إلى مصر حديثا بعد الإسلام بإنهم «لم يحفظوا» أى لم يحافظوا على قبليتهم وعرقهم، فساحوا فى البلاد وساحت البلاد فيهم، وانصهروا جميعا حتى أصبحوا «سبيكة واحدة» لا تكاد تعرف عناصر مكوناتها الأولى.

إذن «لم تلتهم العروبة كافة ما فى المنطقة من قوميات» لأنه لم تكن هناك فى المنطقة قوميات جاءت العروبة لتتغذى عليها، بل جاءت موجة جديدة من العروبة لتغذى موجة قديمة كانت قد اوشكت على الذبول بفعل قرون طويلة من الاحتلال الأجنبى.

فالعروبة جاءت مغذية وليست غازية.

والفرق بين «التغذية» و «الغزو» هو الفرق بين ما نقوله نحن وما يقوله الدكتور عوض، وهو الفرق ين قومية واحدة وقوميات كثيرة مختلفة ومختلقة.

ويقول الدكتور لويس عوض حول افتراضه الثانى :

«أما تصور أن قطرة واحدة من الدم العربى الفاتح كانت كافية لصبغ دماء المنطقة كلها من المحيط إلى الخليج، كما تصبغ نقطة من الحبر الأحمر جدولاً من الماء الباهت، وهو قول هراء، لأننا نعرف من قوانين الوراثة أن الدم الوافد هو الذى ينوب فى الدم الأصيل ما لم

يتجدد بقوة متساوية فى كل جيل بحيث يغير مكونات «جيناته»، كما نعرف أن مصر مثلا فيها من الدم اليونانى الذى «شابها» نحو ألف عام من ٣٢٣ ق.م إلى ٦٤٠م أكثر مما فيها من الدم العربى الذى شرفها ثلاثة قرون منذ عمرو بن العاص وحتى استولى عليها التركمان طولون واخشيد.. ومن جاء بعدهما من مماليك برجية وبحرية.. إلخ، بل نعرف أن فى مصر من الدم الطولانى والارى والتركمانى والفارسى والكردى والشركسى والقوقازى والتركى أضعاف ما فيها من الدم العربى، أثار ألف عام من الحكم المملوكى التركى، فضلاً عما فيها من الدم الأفريقى الزنجى، ومع ذلك فمصر ليست طورانية ولا أرية ولا شركسية ولا تركية ولازنجية.. لأن كل هذه الدماء الوافدة كانت تذوب أولاً بأول فى البحر المصرى الكبير»!!.

بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٧٣ وفى جريدة الأهرام وتحت عنوان «حوار الشياطين» كتب الدكتور لويس عوض يقول أن الدكتور مجدى وهبة قدم بحثا فى معهد «ايبالو» فى إيطاليا حول مصر قال فيه الدكتور وهبة - كما أورد الدكتور عوض: «قلما نجد مثل هذا الخليط من الشعوب فى مثل هذا الوادى الضيق»!!.

وحين يقرأ الدكتور لويس عوض هذا القول للدكتور مجدى وهبة تثور ثائرته المصرية الوطنية ويكتب قائلا: «هذه العجينة السلالية قد تكونت فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات.. وثبتت على ذلك على نحو تقريبى، ومشكلة مصر السلالية، هى صفاؤها السلالى الذى جاء من مركزية السلطة فى البلاد، فمن استولى على القاهرة، استولى على مصر كلها،

لأنه يستولى على عنق شريانها وهو النيل (بالمناسبة عنق النيل فى أسوان وليس فى القاهرة كما يقول دكتورنا).. ومن هنا - كما يواصل الدكتور عوض كلامه - فغزاتنا لم يكونوا فى حاجة إلى التغلغل فى أعماق الصعيد أو الدلتا وبث معسكراتهم فى كل مكان ليخضعوا البلاد».

ويستطرد الدكتور عوض قائلاً :

«وقد كان من رأى توينبى فيما أعتقد أن عزلة مصر داخل صحاريها تشبه عزلة بريطانيا داخل بحارها. وأيا كان الأمر فقد حمت صحارى مصر الوادى الخصيب بوجه عام من الغزوات والهجرات المتصلة، فما حدث لغيرها من الدول خلال مئات السنين حدث لها خلال الآف السنين واحسب أن وضع مصر الثقافى شبيه بوضعها السلالى أى أنه متميز بالصفاء والنقاء والانسجام والاستمرارية رغم مرور آلاف السنين.. بسبب التصاق الفلاح بأرضه وعزلته داخل صحاريه، وقلة تعرضه للثقافات «والحضارات المستوردة» إلا فى المدن الكبرى كالقاهرة والأسكندرية، وهذا يفسر هذه الخصوصية، أى الخصوصية القومية للشعب المصرى التى يتحدث عنها الدكتور مجدى وهبة، فليست هناك نقائض ولا مفارقات، حتى بالنسبة للجيوب المتبقية من الطبقات الحاكمة والبرجوازية الأجنبية الوافدة القديمة «البزرميط» التى رفضت باستمرار عبر القرون أن تندمج فى كيان الشعب المصرى.. هذه الطبقات «البزرميط»، أثرت أن تكون بلا وطن واضح، ولذا كان دورها التاريخى عبر آلاف السنين، أى منذ انهيار آخر الفراعنة، هو خدمة الاستعمار ولى النعم

من ششنق الأول واشور هانيبال وقمبيز، إلى اليونان والرومان وبيزنطة إلى العرب والأتراك والمماليك إلى الفرنسيين والإنجليز والأمريكان، وكان دورها التاريخى عبر آلالف السنين محاولة إذابة كيان مصر القومى فى الكيانات السائدة أو تلفيق كيانات قومية غير ما خرج من تربة مصر، ولكن عزلة الفلاح المصرى فى واديه الخصيب داخل صحاريه لم تمكنهم من نسق كيان مصر القومى وثقافتها القومية»!!

هذا ما كتبه الدكتور لويس عوض دفاعاً عن نظرية «السبيكة الواحدة» التى حاول الدكتور مجدى وهبة أن يشكك فى نقائها حينما قال فى بحثه أن الشعب المصرى «خليط» من الشعوب يسكن هذا «الوادى الضيق» الذى هو مصر.

ولعل الطريف فى الأمر أن الدكتور لويس عوض قد كتب مقاله السابق بجريدة الأهرام تحت عنوان «حوار الشياطين» معتبراً ما قاله الدكتور وهبه حول طبيعة الشعب المصرى يدخله فى عداد الشياطين الذين يستحقون الرجم، وقد رجمه الدكتور عوض بمقاله السابق الذى تحدث فيه - ربما لأول مرة - حول نظريته فى «السبيكة الواحدة».. الوحيدة!.

وهو فى هذا المقال يرجع تفرد الشعب المصرى وامتيازه إلى عنصرين : هما طبيعة الأرض وطبيعة النظام.

ويتلخص العنصر الأول فى أن طبيعة الصحراء التى تحيط بمصر من كل جانب، قد حمت شعبها من الاختلاط وضمنت له الصفاء الكامل.

أما الأساس الثانى فيقوم على طبيعة النظام الذى يتسم بالمركزية

منذ أقدم العصور، وهو ما جعل المحتل الأجنبي يركز كل جهوده للاستيلاء على العاصمة دون التغلغل فى قرى مصر ونجوعها .. مما ساعد على النقاء العرقى والصفاء الجنسي.

ولكى يضفى الدكتور عوض على كلامه طابع العلمية الذى رأى أنه ينقصها، استشهد برأى «ظن» أن عميد المؤرخين ارنولد توينبى قد قال به، مدللاً على صحته بما حدث فى انجلترا التى لعبت البحار حولها ما لعبته الصحارى حول مصر من دور عظيم فى الحفاظ على كيانها القومى.!!

والدكتور عوض يحصر «البزرميط» أو الخليط فى مدينتين فقط هما القاهرة والأسكندرية، ويتهم هذا البرزميط بالخيانة والعمالة للمحتل الأجنبى طوال عصور التاريخ.!!

ثم جاء دكتورنا بعد ذلك بخمس سنوات فقط ليقول أن الشعب المصرى كله «بزرميط».. ويتخلى .. ربما لأول مرة – عن نظريته فى السبيكة الواحدة.. فما الذى حدث؟

الذى حدث باختصار أن دكتورنا فى يناير ٧٣ – لم يكن يستطيع أن يتحدث عن نظرية «البزرميط» تلك أمام شعب يستعد لخوض حرب لتحرير أرضه، دون أن يدفع ثمنا غاليا لنظريته، فكان لابد أن يتحدث عن السبيكة الواحدة حتى لا يعتبر كلامه عن البزرميط نوعاً من التخريب أو «تفتيت الجبهة الداخلية»!!

أما الآن – وفى عام ١٩٧٨ – فقد تغير العدو من اسرائيل إلى

عربى، وحتى لا يكون هناك حلفاء داخل مصر ينتمون إلى هذا العدو الجديد، كان على الدكتور عوض أن يشكك فى انتماءاتهم بتوزيعها على أمم الأرض وشعوبها المختلفة.

لم تعد صحراء مصر ولا حكوماتها المركزية قادرة على حماية القومية المصرية من الاختلاط بالأتراك والشركس والطوران والفرس واليونان والرومان و«الغزاة العرب» والماو ماو والقوقاز، فتحولت الصحراء من «سد» إلى باب، وتحول الحكم إلى أداة لتحويل المصريين إلى شعب برزميط فيه من الأعراق والأجناس أكثر مما فيه من العرب.

إذن.. إذا كان ولابد من التسليم باختلاط المصريين، فقد كان اختلاطا بجميع أقوام الأرض ما عدا العرب، وبجميع دماء البشر دون الدماء العربية وحدها.

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد بأن ذلك لم يحدث، وإذا كان قد حدث فى أى مكان آخر، فإنه لم يحدث فى مصر، على الأقل بالصورة التى يتحدث عنها الدكتور عوض.. تلك الصورة التى تتنافى مع حقائق التاريخ التى يعرفها استاذنا أكثر منا.

فقد جاء اليونان إلى مصر جنوداً مرتزقة فى جيش فرعون، أو للتجارة بين مصر واليونان وبلاد المشرق العربى، وكان هؤلاء اليونانيون يعيشون فى ثلاث حاميات صغيرة الأولى منها عند ماريا على شاطىء بحيرة مريوط فى الغرب والثانية فى «دفنة» فى الشرق والثالثة فى «الفنتين» فى الصعيد.. وكانت تلك الحاميات فى عهد الأسرة السادسة

والعشرين (٦٦٣ – ٥٢٥ق.م) وكان هؤلاء اليونان يعيشون فى مصر كجالية أجنبية تثير حنق المصريين وكراهينهم بسبب احتكارهم للتجارة فيها .. وحينما استعان الليبيون بفرعون مصر «واحب رع» لتخليصهم من اليونان الذين كانوا قد تكاثروا فى ليبيا، أرسل لهم أحمس الثانى الذى ما كاد يعود من حروبه ضد اليونان فى الغرب حتى قام بانقلاب ضد الفرعون الذى كان ميالاً لليونان كغيره من فراعنة تلك الأسرة، وجمع أحمس اليونانيين فى مصر فى مكان واحد فى مدينة «نوكارتيس» غرب الدلتا، وسمح لهم بأن يحولوها إلى مدينة يونانية، إلا أنه لم يسلم من خيانتهم. فقد فر أحد قواده منهم والتحق بجيش قمبيز الفارسى ليكون دليله فى الطريق إلى مصر.

إذن لم يندمج اليونانيون فى مصر لتصبح وطنهم الذى يدافعون عنه ضد الغزاة.. لأنهم هم أنفسهم لم يكونوا غير ذلك. وقد عاش اليونان فى مدنهم المصرية التى لم تكن أكثر من «جيتو» يونانى متبادلين مع المصريين نظرات الشك وعدم الثقة، ونحن نعلم أن المصريين كانوا يطلقون على اليونانيين اسم «همج» BARBAR، كما كان اليونانيون أيضا ينظرون إلى المصريين ذات النظرة ويطلقون عليهم ذات الصفة، ويقول يوسف السكندرى أن المصريين كانوا ينظرون إلى كهنتهم فى عهد البطالمة على أنهم ممثلوهم وحكامهم الحقيقيون (فى أصول المسألة المصرية – صبحى وحيدة) وليس البطالمة أو اليونان.

ويقول ماسبيرو أن الإدارة بقيت مصرية فى عهد الاسكندر كما بقى

الحكام مصريين ويقول ديودور أن الاسكندر غادر مصر إلى سورية ومعه كل جيشه، ولم يستبق أحداً منه فى مصر.

ويقول فوشيه أن الاسكندر لم يتخذ احتياطات ما من المصريين وكان كل همه متجها إلى تجنب العبث بالسلطة أو خيانة من أعطى لهم الحكم، وقد ركز الحكم المدنى فى يد المصرين.

ويقول «مهافى» أن الاسكندرية أقيمت لتموين جيوش الاسكندر وتأمين مؤخرتها خصوصاً من الضرر الإغريقى، وكان أغلب أهلها من المصريين حين نشأت، واستمر عددهم فى الارتفاع حتى كانت الاسكندرية التى وقفت فى وجه قيصر تكاد تكون مصرية خالصة، أما «راقودة» فكانت قبل الأسكندرية مدينة دينية تتكون من ١٢ قرية صغيرة، وقد احتفظت بأهميتها الدينية هذه حتى بعد أن صارت جزءاً من الأسكندرية، فكانت تضم معابد المدينة وعلى رأسها «سرابيس» الضخم (صبحى وحيدة - المصدر السابق).

ويقول جوجيه أن إغريق المدن الإغريقية فى مصر كانوا يمنعون من الزواج من المصريين، ولكنهم كانوا يستطيعون الزواج من الإغريق المقيمين خارج مدنهم التى كانت عبارة عن وحدات سكنية ينظر أبناء أحداها إلى أبناء الوحدة الأخرى.

- حتى ولو كانوا يونانيين مثلهم - نظرتهم إلى الأجنبى الغريب، حتى كانت المرأة التى تتزوج خارج وحدتها حين اجيز هذا الزواج بعد أن كان يعد سفاحاً.. فقدت حقوقها فى وحدتها الأصلية.. وكان المجتمع

الإغريقى الرومانى لا يعرف غير قرابة العصب.

وقد بقى المصريون على عدائهم مع البطالمة المحتلين، وحين قاموا بثورتهم ضدهم اضطر البطالمة إلى تدمير العاصمة «طيبة» لاخماد الثورة المصرية.

أما العداء بين المصريين والرومان فهو معروف خاصة فى «عصر الشهداء» أو عصر الاضطهاد المسيحى الذى استمر حتى الفتح الإسلامى لمصر.

وفى عهد بطليموس التاسع زار «بوليب» مصر وكتب يقول أنه وجد المصريين أكثر حضارة من إغريق الأسكندرية، أى أن بوليب استطاع أن يفرق بسهولة بين المصرى والإغريقى فى مدينة بناها الإغريق.

ويقول ماسبيرو أن العهد البطلمى لا يعدو أن يكون ثمرة اختلاط الفكر المصرى بالفكر الإغريقى (فى أصول المسألة المصرية).

وهكذا لا يعدو الاختلاط مجال الفكر إلى مجال العرق أو الجنس إلا فيما ندر.

وحتى فى هذا المجال الفكر والثقافى كان العنصر المصرى هو الغالب على العنصر الإغريقى.. فى مجال الدين وغيره من المجالات الأخرى كما يقول المؤرخون الغربيون أنفسهم.

فقد بقيت طبيعة الحياة الإغريقية التى تتسم بالانغلاق والتقوقع داخل «الدولة المدينة» City state.. وقد شرعو القوانين التى تمنع الاختلاط بغيرهم من الأجانب حى لو كانوا يونانيين من مدينة أخرى..

كذلك نظر إليهم المصريون على أنهم برابرة ومحتلون، وهذا كله أدى إلى ندرة الاختلاط العرقى بين الشعبين.. فلم يتجاوز الاختلاط مجال الفكر الذى لعب فيه العنصر المصرى الدور الإيجابى والمؤثر.

ولا نعرف من أين جاء الدكتور لويس عوض بما قاله من أن «مصر فيها – مثلاً – من الدم اليونانى الذى شابها نحو ألف عام أكثر مما فيها من الدم العربى الذى شرفها ثلاثة قرون منذ عمرو بن العاص حتى استولى عليها التركمان والاتراك.

من أين استقى دكتورنا معلوماته عن العصر اليونانى فى مصر فربما استطاع أن يغير رأينا ويحولنا من قوميين عرب إلى قوميين يونانيين.. وينتهى «حوار الشياطين» بيننا وبينه!!

أما كلام الدكتور عن الترك والطولون والأخشيد والتركمان والقوقاز والفرس والاكراد والشركس.. فهو ينطبق على عصر واحد فقط هو عصر «المماليك» ولا أعرف لماذا لم يسم دكتورنا هؤلاء باسم واحد فقط بدلا من أن يتعب نفسه ويتعبنا بعدد من الأسماء الغريبة.. ويضع نفسه فى صورة المفلس الذى لا يمتلك سوى جنيه واحد فإذا سئل قال معى ألف مليم..!!

فنحن إذا سمحنا لأنفسنا باستخدام نفس الأسلوب لقلنا.. ماذا يكون الأكراد والشركس والتركمان والقوقاز أمام العليقات والجعافرة والكنوز والهوارة وجهينة والعبابدة والجوازى والغوايا والحويطات والبنمات والسنارى وخزاعة وبنى سليم، وجذام وغسان، والبابليين، والأشوريين والكلدانيين، والعموريين والادوميين، وبنى هلال، وبنى قيس، وبنى مر، وبنى

سويف، وبنى عدى، وبنى مزار، وبنى عامر، وبنى ربيعة.. هل يأذن لى الدكتور أن أخذ نفسى؟!

جميع هؤلاء - وأكثر منهم أضعافا - جاءوا إلى مصر واستقروا فيها، ونحن نختصرهم جميعاً تحت اسم واحد هو «العرب» ولا نلجأ - كما يفعل غيرنا - إلى مسألة «الفكة» ليوحى بضخامة ذخيرته.. وهو فى الحقيقة لا يملك شيئا يستحق الذكر.

يذكر صبحى وحيدة - وهو مفكر مسيحى مصرى - فى كتابه أصول المسألة المصرية».. «أن الجنود الذين استعان بهم الوزراء فى نهاية الدولة الفاطمية لم يتعدوا حداً معينا من الكثرة أو الاستعداد أو النظام، فقد اضطر بدر الجمالى إلى جلب الجنود من الشام واحتاج الأمير حسنى بن الحافظ إلى تعيينه أوباش القاهرة وانتهى رضوان إلى مغادرة مصر فى البحث عن جند يقوم بهم أمره.. وبانت ضآلة هؤلاء الأمراء جميعاً بعد ذلك حين حاولوا الكيد لصلاح الدين فأطلق عليهم جنده فردوهم إلى الطاعة رداً عاجلاً».

ونحن نعلم أن نور الدين زنكى هو الذى أمر صلاح الدين الأيوبى بالنزول إلى مصر لخلع الفاطميين (أخر دولة عربية فى مصر) لوضع حد للاضطرابات التى كانت تعترى علاقات مصر بالشام والخلافة العباسية فى ذلك الوقت والانصراف لمواجهة الخطر الصليبى.

وحينما جاء صلاح الدين إلى مصر لم يكن معه سوى ١٢ ألف فارس من الأكراد والترك، أراد أن يحل بهم محل القوات العربية (المصرية والسودانية والمغربية) التى كانت للفاطميين.

ويقول المقريزى فى «الخطط» (ان شراء الاتراك أمر عسير حتى عهد الصالح أيوب وقد زاد شراء المماليك أيام زحف التتار على مصر والشام.. ليشاركوا فى إيقاف هذا الزحف المغولى). ونحن نعلم أنهم كانوا قد شاركوا فى الحروب الصليبية، ضد القوات الأوربية الغازية، ومن بقى منهم بعد تلك الحروب الخارجية، مات فى حروب داخلية كانت منتشرة بين الامراء والسلاطين والولاة حتى أن «فييت» يحصر عدد المماليك الذين ماتوا موتا طبيعيا فيجدهم لا يزيدون على ثلاثة عشر مملوك (صبحى وحيدة – فييت فى «جوامع القاهرة»).

وأى تلميذ بالمرحلة الابتدائية يعرف أن المماليك كانوا يخضعون فى حياتهم لنظم طائفية، ويعيشون فى مجتمعات عسكرية مغلقة فى «قلاع» وحصون وأبراج.. فسموا بالمماليك البرجية لأنهم كانوا يعيشون فى أبراج المقطم.. والمماليك البحرية لأنهم كانوا يعيشون فى جزيرة الروضة محاصرين ببحر النيل.

وفى عصرهم بنوا سور القاهرة وانشئت قلعنا الروضة والمقطم وهى أثارهم الغنية الوحيدة التى أقاموها.

ومجتمع عسكرى مغلق يعيش فى «أبراج» المقطم أو «جزيرة» الروضة.. كانت الحرب هى الحرفة الوحيدة التى يجيدها هؤلاء.. مجتمع يعيش فى حروب مستمرة لا تعرف حياته غير القسوة والانغلاق لا يساعد على الاندماج فيه، أو أن يندمج هو فى غيره من المجتمعات. والدليل على ذلك أن المصريين كانوا ولازلوا يطلقون على أنفسهم اسم «أولاد العرب» تمييزاً لأنفسهم عن غيرهم ممن ليسوا عربا – خاصة المماليك الذين لم يزد عددهم عن ثلاثة عشر ألفا عند قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر كما يقول نابليون بونابرت فى مذكراته – وقد قضى محمد على عليهم جميعاً فى مذبحة القلعة الشهيرة وبعدها.

وهكذا نجد أن الدم اليونانى أو المملوكى لم يكن أكثر من الدم العربى فى مصر كما يقول الدكتور لويس عوض.. فقد جاء العرب إلى مصر ليستقروا ويعيشوا، وهم فى ذلك يختلفون عن «المماليك» الذين جاءوا إليها ليحاربوا ويموتوا.

جاء العرب لينشروا ويعمروا ويبنوا حضارة، فانتشروا فى قرى مصر ونجوعها كما يروى المقريزى، ولم يعيشوا فى «أبراج» أو «جزر» أو على سفوح المقطم كما كان المماليك.

لقد ساح العرب فى مصر وانتشروا فى كل كور من كور مصر حتى أن عبد الله بن الحبحاب – كما يخبرنا المقريزى – يتعجب من وجود مدينة

ليس فيها أحد من العرب وهي بلبيس فيكتب إلى الخليفة بطلك مستئذنا فى استقدام بعض الأسر والعائلات من قبيلة قيس العربية. فجاء أكثر من ١٥٠٠ أسرة لتستوطن بلبيس وحدها.

وهكذا نجد أن صحراء مصر لم «تحم الوادى الخصيب من الغزوات والهجرات المتصلة» للقبائل العربية، وإذا كان الدكتور لويس عوض يرى أن ما حدث لغير مصر من الدول فى مئات السنين حدث لها خلال آلاف السنين» – فإن المقريزى يخبرنا بأن الإسلام لم ينتشر فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة، فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة «كثر انتشار الإسلام بقرى مصر ونواحيها».

ويقول بن عبد الحكم – وهو مؤرخ مصرى – أن اللغة العربية انتشرت فى شوارع مصر خلال السنين سنة الأولى بعد الفتح الإسلامى.

ماذا يعنى ذلك؟

إن ذلك ليس له سوى معنى واحد وهو أن اللغة العربية لم تكن لغة أجنبية.. بل كانت لغة مصرية استعادتها مصر على أيدى العرب القادمين بالإسلام.

ولم تكن الحضارة العربية التى وصلت إلى الفلاح المصرى «الملتصق بالأرض والمعزول داخل صحاريه» – كما يقول الدكتور لويس عوض – حضارة مستوردة. بل كانت حضارته هو وقد انتقلت إلى مكان أخر من

أرضه – الجزيرة العربية، ليتوفر على انضاجها أخوته هناك ريثما يكون هو قد فرغ من الاحتلال الأجنبى الجاسم على أرضه، وحينما تنضج تلك الحضارة – وتستوى على عودها – بعيداً عن أعين الأجنبى – يجىء بها أبناء العم من العرب إلى مصر ليساعدوا أخوتهم فى التخلص من الأجانب ليتسنى لهم بعد ذلك مشاركتهم فى البناء من جديد.

هذا هو التفسير الوحيد الذى لا يجعل من مصر أطول مستعمرة فى التاريخ، ولا يجعل من شعبها مريضا «بالمازوكية» وحب الاحتلال واستمرار العبودية والرق. لم يأت العرب إلى مصر غزاة ومحتلين كما جاء الرومان والتتار والصليبيون والفرنسيون والانجليز – كما يقول الدكتور لويس عوض.. بل كان دخول العرب إلى مصر، بمثابة انتقال من مكان إلى آخر داخل الوطن الواحد.

كما أن الحضارة المصرية التى يفخر بها دكتورنا – ونفخر بها نحن أيضا – هى حضارة عربية فى مصر، ليس لها من السمات المصرية أكثر مما لها من سمات عربية، نجدها فى الفروع الأخرى للحضارة العربية فى سورية والعراق والجزيرة العربية.. وقد أثبت العلامة المصرى أحمد فخرى وجميع المهتمين بالحضارات القديمة هذه الصلات والسمات المشتركة بين الحضارة المصرية القديمة.. والحضارات العربية الأخرى.. لقد كانت الحضارة المصرية تحمل الطابع العربى.. نفس الطابع الذى حملته

الحضارة العربية - فى العراق واليمن وسورية ولبنان والأردن وفلسطين وليبيا.

إن كنت «نازى» أفكرك..!!

أما الافتراض الثالث الذى تقوم عليه «العروبة العرقية التى هى لون من ألوان النازية» فى نظر الدكتور لويس عوض.. فهو :

«أما أن الثقافة العربية، وقوامها اللغة والدين التى انتشرت منذ الفتح العربى فى أرجاء ما نسميه العالم العربى من الخليج إلى المحيط، قد اختلطا بفكرة سيادة الدم العربى. وهو أيضا قول هراء لأن فيه خلطا بين العروبة والإسلام.. فالعروبة قومية محدودة بسادة العرب قوما أو جنسا أو اعرافا فى زمان معين ومكان معين على امبراطوزية مهما اتسعت فلها تخوم معينة، بينما الإسلام رسالة سماوية أرسلت للكافة فى بنى الإنسان فى كل زمان ومكان.. وهى لا تفاضل بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى، وهى لا تقول للصين المسلم أو الزنجى المسلم أنت عربى لأنك مسلم.. هذا هو الجمود الذى وقعت فيه كل امبراطوريات التاريخ فتشققا داخلها القوميات المقهورة.. وهذا هو عين الخطأ الذى يكرره البعثون أو القوميون

العرب فى دعوتهم الحديثة، وهو استغلالهم لوحدة الثقافة العربية – أيا كان معناها فى أذهانهم، فى دعوة مركزية الدولة العربية ومبدأ الوحدة الاندماجية التى تهدر فيها كل القوميات، ما عدا القومية العربية، وتهدر فيها كل القضايا وكل المصالح وكل المناهج إلا ما تراه قضيتها ومصلحتها ومنهجها .. فغدت دعوة انشقاق أكثر منها دعوة وفاق، وفجرت ردود الأفعال العنيفة فى كل مكان بدلاً من تنمية التآلف وجمع الكلمات بين قوميات المنطقة العربية.. واستفزت مفكرا مثل توفيق الحكيم..»!!

لا أعرف ما الذى يقصده دكتورنا بهذا الكلام المتناقض؟ هل يريد منا أن نتنازل عن قوميتنا العربية ودعوتنا إلى الوحدة حتى لا نستفز ونغضب «مفكراً مثل توفيق الحكيم» أو حسين فوزى أو لويس عوض؟!

هذا شىء بسيط وهين.. سوف ندع التجزئة والفقر والجهل والمرض والاحتلال يمرحون على أرضنا العربية حتى لا نستفز الحكيم أو فوزى أو عوض.. بالدعوة إلى الوحدة العربية التى تقضى عليهم جميعا!!

دكتورنا يريد أن يقول أن سيادة الثقافة العربية على ما عداها من ثقافات قومية أخرى لم تختلط بفكره سيادة الدم العربى على ما عداه من دماء قومية أخرى.. أو بمعنى آخر أن انتشار الثقافة لا يعنى بالضرورة انتشار الدم.. وبالتالى تصبح دعوة القوميين العرب إلى الوحدة العربية مجرد هراء فى نظره.. ولكنه يعود فيعترف بالقومية العربية وإلا فما معنى

قوله «العروبة قومية محددة بسيادة العرب قوماً أو جنساً أو أعرافا فى زمان معين ووقت معين على امبراطورية مهما اتسعت فلها تخوم معينة».

كيف نوفق بين اعترافه بالقومية على هذا النحو.. وبين دعوته لنا بالكف عن التمسك بأهدافها؟

ثم يعود فينظر إلى القومية العربية نظرة محددة فيقول : «مبدأ الوحدة الاندماجية التى تهدر فيها كل القوميات ماعدا القومية العربية.. وتهدر فيها كل المصالح ماعدا مصلحتها»!.

وكأن القومية العربية شيئا معلقاً فى الهواء.. لها مصالح غير مصالح «كل العرب».. فما هى القومية العربية ما لم تكن هى العرب كلهم؟ ثم من قال أن الثقافة العربية هى الدين الإسلامى؟

الثقافة هى مجموعة من المعايير والقيم الفكرية والحضارية التى ينتجها شعب معين بصرف النظر عن ديانة أفراده، وأن كان الدين يشكل ضابطا لايقاع حركتها.. لكونه يشكل المعايير الأخلاقية التى تنظم العلاقة الإنسانية رأسيا بين الإنسان وربه وافقيا بين الإنسان والإنسان.

أما القومية فهى هوية ثقافية وحضارية قبل أى شىء آخر.. والعروبة معاييرها الحضارية والثقافية التى تتجاوز بها اختلاف الدين.. ولننظر كيف فهم العرب - مسلمين وغير مسلمين - ذلك.. فكان أل بختيشوع أطباء البلاط العباسى، وهذا جرجس بن بختيشوع يعمل طبيبا

خاصا للخليفة المنصور وهو ينتمى إلى عائلة انجبت سبعة أجيال من الأطباء المشهورين عاش أخرهم فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر.

وكان إسحق اليهودى المصرى طبيباً للخلفاء الفاطميين فى القيروان، وكان من تلاميذه الطبيب المسلم «ابن الجزار» الذى كيتب «زاد المسافر» متناولاً فيه الأمراض الباطنية، وقد ترجم إلى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وظل مرجعاً لأطباء العالم طوال العصور الوسطى.

وحينما أنشأ المأمون أول مدرسة للترجمة، أسند عمادتها لحنين بن إسحق وابنه اسحق وحفيده حبيش وكلهم من المسيحيين السوريين.. حتى الصابئة من عبدة النجوم والأقمار كان لهم دور فى الحضارة العربية ومنهم ثابت بن قرة الذى كان فى القرن العاشر من أشهر مترجمى كتب الفيزياء والطب والرياضيات والفلسفة.

وفى العصر الحديث كان ناحوم حاييم اليهودى المصرى عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولم يقل أحداً أن اللغة عماد الإسلام» فكيف يكون أحد اليهود عضواً فى مجمعها. وكان داود حسنى وزكى مراد ومنير مراد وليلى مراد من اليهود المصريين الذين برعوا فى الموسيقى والغناء وكان ولا يزال لهم جماهيرهم من المسلمين.. وكان يوسف قطاوى باسا وزيراً للمالية والمواصلات فى مصر عام ١٩٢٥، وكان صيدناوى وداود

عدس وبنزيون (بن صيهون) من أعمدة الاقتصاد قبل الثورة.

هذه هى الحضارة والثقافة العربية التى انتجها الشعب العربى فى ظل الخلافة العربية الإسلامية، لم يكن الإسلام عائقا دونها، بل على العكس كان هو الدافع والحافز لها حين اعتمد معيار التقوى والعمل الصالح بديلاً عن معيار النسب والعرق، فشعر جميع الناس- يهوداً ومسلمين ومسيحيين – أنهم مواطنون فى دولة لا تفرق بين أى منهم إلا بعمله.

وكان الخلفاء والحكام فى ذلك محتذين برسولهم – صلى الله عليه وسلم – حين اعتمد اللغة معيارا للمواطنة العربية، حين قال دفاعاً عن بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى «ليست العربية فيكم من أب أو أم.. من تكلم العربية فهو عربى».

وكان المسيحيون واليهود مواطنين عرب فى دولة الخلافة لأنهم يتحدثون ويؤلفون بالعربية.. ويعملون على خدمتها كشركاء لا إجراء. فلم تكن العربية إذن «عرقية أو نازية» – كما يقول لويس عوض – بل كانت حضارية على نحو لم يتكرر فى غير الأمة العربية وهذا جولد مان يقول: «إن العرب ليسوا مثل اليهود.. ينتمون إلى الجنس السامى» وقال حاييم وايزمان «أننى لا أتهم العربية بالعداء للسامية وليس من العدالة أن أحاول ذلك.. لأن التاريخ يثبت براءتهم من هذا».

فمن أين جاء الدكتور لويس عوض بوصف النازية للعروبة والعرب.. بينما اليهود أنفهم لم يجرؤا على مثل هذا الاتهام؟!

إن أحداً من المفكرين العرب لم يقل بسيادة الجنس العربى على غيره من الأجناس أو بتمييز العربية على غيرها من القوميات الأخرى.. حتى أولئك الذين يقولون بتميز - وليس بتمييز - الأمة العربية داخل الإطار الإسلامى الكبير يقولون ذلك على أساس الرسالة والتكليف والمسئولية.. ولا يقولونه على أساس العرق أو الدم.

إنهم يقولون بأن الإسلام هو «رسالة العرب» إلى أمم العالم، وأنه تكليف أختارهم الله للقيام به، وأن مسئولية نشره والنهوض به تقوم على أكتافهم قبل غيرهم.. إذن هو تسابق إلى تحمل الأمانة والمسئولية وليس تسابقاً إلى أفضلية أو تميين.

والعروبة التى نعنيها هى عروبة اللغة والثقافة والحضارة والانتماء، وليست عروبة الدم و العرق، وهو ما يجعلها على النقيض تماماً من النازية التى يصف بها الدكتور عوض العرب والعروبة.

نحن لا نقول بالقومية العربية على أساس سيادة الجنس العربى وتفوقه والتمييز العنصرى» - بل نقول بذلك لنناهض الاستعمار الذى فرض علينا التجزئة فرضا، وقسم الأرض الواحدة إلى أوطان عديدة، والشعب الواحد إلى شعوب كثيرة. وذلك لكى يسهل عليه الاستعمار

والاستعباد والاستنزاف.

وحين نقول بالقومية العربية، فإننا ندعو إلى إزالة الحدود المصطنعة والمفروضة.. ونقول كل ما هو مفروض.. مرفوض، فنرفض الحدود ونرفض التخلف ونرفض الاستعباد.. ولا ننادى بالوحدة لكى نستعمر غيرنا..بل لكى نتخلص بها من استعمارنا نحن.

كيف نريد الاستعمار.. ونحن مستعمرون؟!

وكيف نريد الاستعباد.. ونحن مستعبدون؟!

مستعبدون بالتخلف الذى فرضه علينا الاستعمار، وإذنا به فينا، لكى نبقى على ما نحن عليه فيسهل استنزافنا.

نحن لا ننادى بالتفوق العنصرى.. بل ننادى بالتفوق الحضارى لنا ولجميع البشر، ننادى بوحدة عربية تعيدنا إلى مكاننا الصحيح فى مقدمة العالم.. المتقدم.

فهل نحن «نازيون» .. ونحن «نازلون»؟!

والدكتور لويس عوض يخلط بين «القومية» وبين «الدولة» فيقول فى الأهرام ١١ مايو ١٩٧٨.

«إن المصريين لم يكونوا أمة قبل أن يوحد مينا أو نعرمر الوجهين وقيم فى مصر الدولة الواحدة، بل كانت مصر شعبين ودولتين ومن قبل ذلك شعوبا ودولاً»!!

ثم ينتقل دكتورنا إلى القول بأننا لا نستطيع أن نتكلم اليوم عن الأمة العربية وعن الوطن إلا بعد زوال الحدود السياسية داخل العالم العربى».

وبذلك يكون الدكتور عوض قد وضع العربة أمام الحصان كما يقول المثل الأوربى.. فهو يضع الدولة شرطا للقومية، وليس العكس، الأمر الذى يتناقض مع حقائق التاريخ الثابتة.

«فالقومية المصرية» بمالها من خصائص تاريخية وثقافية واحدة.. هو الذى دفع بالملك مينا أن يمتد بحدود اقليمه فى الصعيد كلى يشمل مصر كلها،، وذلك لكى تتطابق الحدود السياسية مع الحدود القومية إذن فقد كانت الوحدة القومية شرطا للوحدة السياسية، وحينما رأى «مينا» أن الشرط القومى قد تحقق، بدأ فى إتخاذ خطوته لتوحيد مصر سياسيا.

وربط القومية بالدولة فى نظر الدكتور لويس عوض يعد أمرا خطيرا حقا، فالتاريخ – وأنا هنا أتحدث عن التاريخ المصرى القديم – يخبرنا بأن الدولة المركزية التى أسسها «نعرمر» لم تستمر لأكثر من ست أسرات، ففى نهاية الأسرة السادسة، قامت ثورة اجتماعية كبرى أنهت تلك الأسرة، وعاد حكم المدن من جديد..

وكانت كل مدينة تقول «فلنطرد بعضنا بعضاً» كما يقول أحمد فخرى فى كتاب «مصر الفرعونية».؛ ويقول «مانتون» وهو المؤرخ المصرى

لتلك الفترة: أنه حينما قامت الأسرة السابعة، حكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوماً،، أى بمعدل يوم واحد لكل ملك جديد.!!

وعلى جدران مقبرة المعلا «بين الأقصر واسنا». نقرأ بعض الحوادث التى وقعت فى أيام حكم الأسرتين التاسعة والعاشرة فى «اهناسيا». كان «عنخ تيفى» صاحب هذه المقبرة حاكما للأقاليم الجنوبية الثلاثة، «الفنتين. أدفو – أرمنت»، أى أن نفوذه كان ممتداً من النوبة حتى حدود الأقليم الرابع وهو إقليم «طيبة» .. يفتخر «تيفى» بسطوته وقوة جنوده الذين كانوا ينشرون الخوف إذا خرجوا للحرب (مع المدن المصرية الأخرى) .. ويتحدث عن المجاعة التى فتكت بالصعيد ولم ينج منها سوى إقليمه، لأنه ساعد الناس بتوزيع الحبوب عليهم، وحمى الضعفاء من الأقوياء حتى مرت تلك المحنة بسلام.

ويذكر أحمد فخرى أنه يخالجه الشك فى أنه حدثت حرب بينه وبين «عنتيفى» أمير إقليم طيبه الذى اتحد مع من كانوا فى الشمال وخاصة امراء قفط ودندرة، ولكن نتيجة تلك الحروب لم تغير من الأمر شيئا، إذ ظل عنخ تيفى حاكما على أقاليمه الثلاثة مواليا لبيت اهناسيا.

وحين تولى «اختوى» الحكم فى اهناسيا أراد أن يتخلص من أمراء طيبة وحلفائها فى الجنوب، فحدثت حرب بين الفريقين دارت رحاها فى أقليم «ثنى» على مقربة من ابيدوس، انتصر فيها الاهناسيون بمعاونة من

أمراء أسيوط ولكن الطيبين عادوا فاستردوا ما فقدوه تحت قيادة «واح عنخ» الذى لم يكتف باستعادة حصن تنيس بل تقدم شمالاً حتى استولى على مدينة كوم اشقاو فى الإقليم العاشر من صعيد مصر.. أى أنه أصبح على حدود إقليم أسيوط نفسه.

ثم تقدمت الأسرة الطيبية بعد ذلك وقضت على عائلة اهانسيا وبدأت حكم الأسرة الحادية عشرة، التى احتاجت إلى ثمانين عاماً أخرى لكى تستطيع أن تحكم البلاد كلها تحت قيادة «منتوحتب الثانى».

هكذا استمرت الحرب بين امراء مدن الجنوب، وبين امراء مدن الشمال أنفسهم، وبين امراء مدن الجنوب بعضهم بعضا، بل وبين أفراد الأسرة الواحدة، فى الكثير من فترات التاريخ المصرى القديم. وانتقال الحكم من أسرة إلى أسرة أو من مدينة إلى أخرى.. كانت تصاحبه دائما الحروب والأحداث، الدامية، بحيث يمكننا القول بأن تاريخ استقلال المدن فى مصر يساوى أن لم يكن يزيد على تاريخ الحكومات المركزية فيها، وكان تعدد الآلهة فى المدن المصرية يعكس تعددية الحكم فيها، أو ظل الدين معياراً للمواطنة والأنتماء أكثر من أى معيار أخر فى مصر القديمة.. فكان «بتاح» فى ممفيس وأمون فى طيبة وآتون فى تل العمارنة «وست» فى صان الحجر، ورع فى عين سمس.. إلى أخر ما هناك من آلهة، يعكسون بتعددهم تعدداً فى أنظمة الحكم.. حيث كان لكل آله من

هؤلاء الآلهة كهنة ينصبون الأمير أو الملك الذى يعمل لخدمتهم وخدمة آلهتهم.

فإذا كان الدكتور لويس عوض قد وضع الدولة المركزية شرطا للحديث عن القومية، فإن ذلك يعنى أنه لم تكن هناك «قومية مصرية» إلا فى تلك الفترات التى تحققت فيها المركزية للدولة فى مصر.. وهى فترات كما نعرف ليست طويلة، وليست لها صفة الاستمرارية والدوام، بطول ودوام التاريخ المصرى ذاته، فهل يعنى ذلك أن المصريين لم يكونوا شعباً واحداً أو «قومية واحدة»؟

إجابتنا على ذلك.. كلا بالتأكيد، فقد كان المصريون شعباً واحداً طوال تاريخهم. حتى قبل أن يوحد مينا بين شطريه الوادى شماله وجنوبه. بل أن مينا لم يكن ليفعل ذلك لو لم يكن متأكداً من «قومية واحدة» تجمع الشعب المصرى فى شطيه هى التى تدفعه لذلك وتحثه عليه.

ونحن حين نتحدث عن القومية العربية، فإننا نطالب بأن تتطابق حدود الدولة مع الحدود القومية، فكما كان إقليم الجنوب أو إقليم «تنيس» الذى يحكمه «مينا» جزءا من مصر، فإن مصر ذاتها – الآن – جزء من دولة أكبر هى الدولة العربية التى يجب أن تتطابق حدودها السياسية مع حدود الشعب فيها.

هذا هو باختصار مفهوم القومية العربية، والوحدة العربية التى

تدعو لها، وهى لا تعنى أكثر من تحقيق الدولة العربية الواحدة التى تضم جميع أبنائها ممن يختلفون عن غيرهم ويتفقون فيما بينهم فالمصرى يختلف فى كل شىء عن الفرنسى أو الأمريكى أو الصينى.. ولكنه لا يختلف فى شىء عن العراقى أو السورى أو المغربى.

وإذا جئنا إلى التاريخ الحديث، وجدنا أن ألمانيا كانت دولة واحدة، فأصبحت بعد الحرب العالمية الثانية دولتين، وكان من الممكن أن تنقسم إلى أكثر من هذا. فهل يعنى ذلك أن هناك قوميتين أو عدداً من القوميات الألمانية بعدد ما كان يمكن أن تنقسم إليه من دول؟

بالطبع هذا كلام ليس صحيحاً، فهناك قومية ألمانية واحدة سوء أكانت ألمانية دولة واحدة أو عدة دول.

وما حدث لألمانيا حدث لنا نحن العرب، فقسمنا الاستعمار الغربى فى اتفاقية سايكس - بيكو الشهيرة إلى دول ومحميات ومشايخ، ثم اخترعوا لنا ما يسمى «بجامعة الدول العربية» التى صفقنا لها طويلا كمؤسسة وحدوية عظيمة، وهى فى الحقيقة ليست أكثر من شرك للقضاء على وحدتنا، ذلك لأن عضوية الجامعة لأية «دولة عربية» كان يعنى اعتراف جميع «الدول» العربية لها باستغلالها عنهم واستقلالهم عنها.. أى اعطاء كل دولة عربية بحدودها الإقليمية صفة الشرعية من بقية الدول العربية، ليصبح لها كيانها المستقل فيعود حاكمها إلى حدوده وينفرد داخلها

بشعبه لترسيخ الإقليمية وخصائصها، وتكريس الانعزالية تحت ستار الاستقلال الوطنى!! ثم جاءت الأمم المتحدة لتعطى تلك الحدود الإقليمة الصفة الرسمية، والشرعية الدولية، وتصبح أية محاولات وحدوية بعد ذلك نوعاً من الاعتداء على السيادة «الاقليمية»، والاعتداء الذى يعمل المجتمع الدولى – متمثلاً من هيئاته الدولية، على منعه وردعه.!؟

وهكذا اكتملت خيوط المؤامرة، عربيا ودولياً، ولمَ يعد فى الإمكان سوى التقوقع والانعزال، والاعتراف «بالأمر الواقع» وهو الأمر الذى فرضته علينا الدول الاستعمارية متناقضا مع واقعا التاريخى والجغرافى والثقافى والحضارى.

فهل نحن «نازيون» وعرقيون، إذا رفضنا شيئا فرضه علينا الاستعمار؟!

** يعود الدكتور لويس عوض إلى القول (أهرام ١١ مايو ١٩٧٨).

«فوحدة الجنس إذن ملازمة لمفهوم القومية مثل وحدة الدين واللغة ومع ذلك فهى وحدها غير كافية لتأسيس القومية، كما أن وحدة الثقافة (الدين واللغة) وحدها غير كافية لتأسيس القومية، وقد تجمع عنصران أو ثلاثة من هذه العناصر، ومع ذلك لا يكتمل لمجموعة بشرية عنصر القومية، إذا كانت تنقصها وحدة التاريخ ووحدة الجغرافيا «الوطن» فالألمان

والنمساويون مسيحيون ويتكلمون الألمانية ومع ذلك لم يقل أحد غير هتلر، أن كل من يتكلم الألمانية فهو ألمانى، فالألمان شىء والنمساويون شىء آخر.. لأن أعراقهم مختلفة من جهة ولأنه لا يربط هؤلاء بأولئك تاريخ مشترك أو جغرافيا مشتركة.. ومعروف أن النمساويين كان يربطهم بالمجريين تاريخ مشترك فى عصور الامبراطورية النمساوية المجرية أكثر مما كان يربطهم بالألمان. وقد تعددت الأجناس بل واللغات فى أمة كما هو الحال فى بريطانيا وفرنسا ومع ذلك تتبلور فيها عناصر القومية بسبب الاشتراك فى بقية المقومات وفى مقدمتها التاريخ المشترك والجغرافيا المشتركة».

ومعنى كلام الدكتور لويس عوض - ورغم ما فيه من تناقضات واضحة - أنه لابد من توافر جميع العناصر لتأسيس القومية، ولم يذكر من بينها «الدولة المركزية» صراحة، حتى أن تعدد الأجناس واللغات فى بلاد مثل انجلترا وفرنسا لم يمنع - فى نظره - من تبلور عناصر القومية بسبب التاريخ المشترك والجغرافيا المشتركة.

فهو يعطى - إذن - أولوية للتاريخ المشترك والجغرافيا المشتركة ويوضح لنا مفهومه لمعنى التاريخ المشترك فيقول : «النمساويون كان يربطهم بالمجريين تاريخ مشترك فى عصور الامبراطورية النمساوية الهنجارية أكثر مما كان يربطهم بالألمان».

فهو يسمى - إذن - مائة سنة أو حتى مائتى سنة أستغرقتها الامبراطورية النمساوية الهنجارية، تاريخا مشتركا، ولا يسمى مئات السنين بين العرب تاريخا مشتركا.

ونحن نفترض الآن مع الدكتور عوض بعكس ما يقول به العلم والعلماء ،نقول أن الوطن العربى يحتوى على أجناس مختلفة ولغات مختلفة مثله فى ذلك مثل انجلتر وفرنسا.. فهل يؤمن معنا الدكتور عوض بتبلور عناصر القومية فى هذا الوطن العربى لو أثبتنا له أن هذا الوطن له أيضا تاريخه المشترك وجغرافيته المشتركة، مثله فى ذلك مثل الأمتين الفرنسية والبريطانية؟

إذا أثبتنا له ذلك، فهل يتكرم علينا ويمنحنا من عنده لقب «أمة» كما منحه لفرنسا وبريطانيا؟.. إذن فليقرأ الدكتور لويس عوض:

تشغل الأمة العربية رقعة من سطح الكرة الأرضية تمتد تقريبا بين خطى عرض ١٠ ، ٣٧ شمالاً وبين خطى طول ١٥ غربا و ٦٠ شرقا، أما حدودها الشمالية فتتكون من البحر المتوسط فى قسمها الأفريقى، وهضاب الاناضول وارمينيا فى قسمها الاسيوى، وتتكون حدودها الجنوبية من الجبال الاستوائية فى جنوب السودان ثم المحيط الهندى، ويحدها الخليج العربى شرقا، والمحيط الأطلسى غربا.

والوطن العربى بذلك كوحدة يشمل مساحة كبيرة من الأرض.. فهو

يمتد من الشرق إلى الغرب على مساحة تبلغ ستة آلاف كيلو متر أما امتداده من الشمال إلى الجنوب فيتراوح طوله فى مختلف أرجائه ولكنه يبلغ ثلاثة آلاف كيلو متر فى بعض هذه الأرجاء.

وتبلغ مساحة الوطن العربى ١١ مليون كيلو متر مربع، وهو يأتى فى الترتيب الثانى من حيث المساحة بعد الاتحاد السوفيتى، وهو أكبر من قارة أفريقيا، كما أنه أكبر من قارة أوربا التى تبلغ مساحتها ١٠ مليون كيلو متر مربع، وهو أيضا أكبر من الولايات المتحدة الأمريكية.

والوطن العربى بذك ليس وطنا مكشوفا من أطرافه، وأنما تحيط به حدود واضحة المعالم، ذات طبيعة منيعة تميزه عن غيره من الأوطان المحيطة به.. أما الحدود الإقليمية فى داخله فهى جميعها حدود وهمية بالمقارنة مع حدوده الخارجية.. لذلك درجنا على تسميتها «بالحدود المصطنعة» فالحدود بين مصر والسودان خط وهمى هو ٢٢ شمالاً والحدود بين مصر وليبيا أيضا خط وهمى هو ٢٥ شرقا، وكذلك الحدود التى تربط بين الأردن والعراق، و سورية أو تونس و الجزائر وليبيا أو المغرب وموريتانيا.

وهكذا نرى أن الحدود خارج الوطن العربى هى حدود طبيعية.. بينما الحدود داخله مصطنعة.. واتحدى شخصا – أيا كان – أن يأتى لنا بحدود طبيعية تفصل بين دولة عربية وأخرى تجاورها.

هذا عن الجغرافيا.. أما عن التاريخ المشترك فهو واضح ولا يحتاج إلى جهد كبير لتذكره.. وسوف نركز فيه على التاريخ المصرى الفرعونى القديم حتى لا نغضب دكتورنا الذى يتهمنا بأننا عرب ولسنا فراعنة.

يقول أحمد فخرى فى كتابه «مصر الفرعونية» : «أن القرون القليلة السابقة على الأسرة الأولى، هى الفترة التى وضعت فيها مصر أسس حضارتها التى ظهرت بعد ذلك آلاف السنين.... ووضعت فيها أصول ديانتها ووضعت أسس نظمها المحلية، ووضعت تقاليد الملكية، وتفاعلت فيها اللغات المختلفة، واتصلت فيها بغيرها من أمم الشرق القديم، كانت فترة اتصالات واسعة، ولم تر مصر غضاضة فى أن تنقل من حضارات بلاد الرافدين بعض مظاهرها وأن تستخدمها، كما أقبلت على اقتباس بعض مظاهر وموضوعات الفن السومرى، وبخاصة فى رسم الحيوانات، وطريقة البناء بالحجر، ولاشك أن تلك المؤثرات وصلت عن طريق البحر الأحمر وجاءت إلى الصعيد عن طريق وادى الحمامات.

ثم يقول أحمد فخرى :

«ولاشك أن فقد آثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد التى على الناحية الشرقية والغربية من مصر.. ومتصلة كذلك بالبحر المتوسط قد تسبب ضياع كثير مما يهمنا الوقوف عليه سواء عن صلة مصر بغيرها من الشعوب أو عن أصل الحضارة المضرية نفسها».

وهذا الحديث للعلامة أحمد فخرى عن فترة عمرها الآن سبعة آلاف سنة، وقبل ظهور مينا مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

ويقطع العلامة سليم حسن بأن «مينا» موحد الوجهين فى مصر كان ينتمى إلى أقوام جاءت إلى مصر من بلاد العرب الآن!!

ويقول أحمد فخرى عن علاقة مصر بالدول العربية الآسيوية فى عصور الدول القديمة: «كان أهل مصر يسيرون جئية وذهابا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطىء السورى.. ومن ثم إلى داخل سورية كما ذكرنا عند الحديث عن «سنوحى». وكانت تقيم فى كثير من المدن السورية جاليات مصرية كبيرة لأجل التجارة.. وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك»؟

ونرى فى مقابر بنى حسن بمحافظة المنيا - مسقط رأس الدكتور لويس عوض - صورة لرئيس أحد القبائل العربية ومعه بعض الأطفال والنساء والحمير المحملة، ويرجح - كما يقول أحمد فخرى - أنهم جماعة كنعانية جاءت لتستقر فى مصر ويستدل على ذلك من وجود النساء والأطفال معهم فى الصورة.

ونحن نعلم أن علاقة مصر بجاراتها فى الشرق ظلت طيبة حتى جاء احمس فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ليضع اللبنة الأولى فى أساس الامبراطورية المصرية التى ضمت مصر وبلاد الشام وليبيا

والسودان، ثم جاء ابنه امنحتب الأول فحافظ عليها، فلما جاء تحتمس الأول كانت مصر مطمئنة وأمورها الداخلية مستقرة، فذهب ليتفقد أحوال رعيته فى أعالى الفرات الذى سماه المصريون القدماء «ذو المياه المعكوسة أو «العاصى» إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب عكس مجرى النيل الذى يعرفونه، وهو غير «العاصى» الذى أطلق عليه السوريون نفس الأسم لأنه يجرى من الجنوب إلى الشمال عكس كل الأنهار السورية.

وقضى تحتمس الثالث هناك بعض الوقت فى اصطياد الفيلة وأرسل منها بعض عشرات إلى معبد أمون فى طيبة.

وبسبب الخلاف بين تحتمس الثالث وعمته حتشبسوت والذى حدث فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بدأ بعض الأمراء السوريون فى الانفصال بأقاليمهم فخرج إليهم تحتمس وهزمهم عند مدينة «مجدو» مرج بنى عامر فى الناحية الشرقية من جبل الكرمل.

وفى حملته الثانية وصل إلى الفرات واستولى على مدينة «قرقميش» بعد أن كان قد أعد سفنه فى مدينة «جبيل» على الساحل السورى ونقلها بالعربات استعداداً لعبور الفرات، ووقف بقواته عند حدود مملكة «خيتا» فى تركيا الآن.

ويذكر لنا أحمد فخرى أن تحتمس الثالث أدرك أنه لن يستطيع الأبقاء على امبراطوريته إذا لم تقم على أساس المودة، ولهذا لم ينتقم من

الأمراء الذين حاربوه بل قربهم منه وثبتهم فى مناصبهم، واكتفى منهم بقسم الولاء والطاعة.. ثم رأى أن يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه، وأبناء كبار الدولة، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم.. ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين.

ويذكر أحمد فخرى أن مقابر طيبة أصبحت سجلاً لحضارات بلاد الشرق القديم فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه ورسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها، وقد زال أثر تلك الحضارات فى كثير من بلاد آسيا العربية والسودان،، وأصبحت مقابر طيبة هى المصدر الأول لدراسة تلك الحضارات العربية.

ونحن نعرف أن المقابر المصرية قد بنيت فى كثير من بلاد آسيا العربية وأصبح آمونا رع هو الآله الرسمى فى جميع أنحاء المملكة العربية فى عصر تحتمس الثالث.

وحين جاء امنوحتب الثانى أمر بتحديد ملكه فى الشمال والجنوب.. وأن أحد رجاله فى العام الرابع من حكمه وضع لوحة على الضفة اليمنى للفرات بجوار لوحات أبيه وجده الأكبر.. ووضع اللوحة الثانية فى الجنوب فى ساحة معبد «ينتا» شمال السودان.

ويقول أحمد فخرى: «منذ اليوم الأول الذى بدأت فيه مصر تتصل ببلاد آسيا العربية: بدأ أبناء تلك البلاد يستوطنون أرض النيل وكان جنود مصر يذهبون إلى آسيا، ويأتى الكثيرون من سكان بلاد الشرق العربى إلى طيبة.. فأصبحت هذه المدينة أولى بلاد العالم وكعبة القصاد.. وفى مثل هذه الظروف كان امراً طبيعياً أن تتغير الحياة الاجتماعية فى مصر وأن يتسع أفق المصريين ويخرجوا من عزلتهم ويخففوا من غلواء تقاليدهم الدينية – بعد أن اتصلوا بالشعوب الأخري، وبدأت تتسرب إليهم آراء وتقاليد لم يكن لهم بها عهد من قبل».

وفى نشيد اخناتون نلمس هذا الحس القومى الناضج الذى يدلنا عن أن رسالته الدينية لم تكن للمصريين فقط.. بل كانت للعرب جميعا.. إذ يقول مخاطبا الآله آتون.

«فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر.. تضع كل شىء فى مكانه.. أنك الذى يمدهم بكل ما يحتاجونه»!!

هكذا انطبقت حدود الدولة السياسية على حدودها القومية.. كما انطبقت حدودها الدينية على حدودها السياسية أيضا فى عهد احناتون الذى لم يكن مجرد نبى بل كان ملكا على الدولة العربية كلها.. وذلك منذ أكثر من خمسة وثلاثين قرنا من عمر الزمان.

وحينما قامت مملكة «خيتا» فى آسيا الصغرى بتحريض بعض

الأمراء السوريين على الانفصال عن مصر، قام سيتى الأول (ابن رمسيس الأول على رأس جيش يقوده بنفسه لإعادة الاستقرار إلى المملكة العربية من جديد.. وأراد أن ينتقل إلى حدودها الشمالية لتأديب الشعوب الهندو أوربية ومملكة «خيتا» وتأمين حدود دولته.. إلا أن أنباء وصلته عن وجود حشود عسكرية على الحدود الغربية لمصر، قامت بها بعض الشعوب الهمجية الأوربية، فاضطر إلى العودة لمواجهة تلك الجيوش وهزيمتها وتسجيل أنباء انتصاراته على جدران معبد الكرنك.

ولكن رمسيس الثانى يقوم بما لم يستطعه سيتى الأول ويواجه الشعوب الهندو أوربية فى الشام بمدينة «قادش» شمال سورية .. ويكاد ينهزم مع قواته لولا وصول نجدة لم يكن يتوقعها فى ذلك الوقت.. وهى النجدة التى قام بها شباب فلسطين، وقد وصلت إلى ميدان المعركة تحت امرة بعض الضباط المصريين ووجدت حرج موقف رمسيس.. فمالت على العدو ميلة واحدة فاحدثت تغييراً فى سير المعارك.. وأنقذت رمسيس من هزيمةكبيرة».

وقد كان النزاع بين مصر «وخيتا» الأوربية يتركز حول السيادة على سورية العربية.. وقد أنضم ملكها «بتشينا» إلى مصر ووقف إلى جانبها ولم يخضع لتهديدات ملك خيتا ومن آزروه.

وحينما تعجز خيتا عن مواجهة المملكة العربية يطلب ملكها من

رمسيس الثانى عقد معاهدة صلح عام ١٢٨٠ ق. م تنص على ألا يعتدى أحد الطرفين على الطرف الآخر.. ويسلمه المجرمين والخونة الفارين إلى بلاده.. ويشهد كل منهما آلهة بلاده على ما يقول.

وفى عهد «منفتاح» (١٢٢٢ - ١٢١١ ق.م) يتمكن أحد رؤساء القبائل التي كانت قد بدأت فى الهجرة على ساحل ليبيا من أن يجمع عدة قبائل من الشعوب «الهندو أوربية» وتحت إمرة زعيم يسمى «مربى».. بدأ الهجوم على مصر فدارت بينهم وبين منفتاح معركة عند «بربر» فى غرب دلتا النيل وانتهت بهزيمة الأوربيين وفرارهم غربا.

وفى نهاية الأسرة التاسعة عشر يعتلى «إرسو» السورى عرش مصر، ويتعرض لانقلاب من «ست نخت» الذى خلفه إبنه رمسيس الثالث على عرش مصر.. ويأتى رمسيس هذا ليساعد الليبيين فى القضاء على هجمات الشعوب الهندواوربية، ثم يتجه ناحية الشرق ليواجه هجمات تلك الشعوب التى جاءت عن طريق البر والبحر لتحتل المدن السورية والعراقية ثم تزحف منها على مصر.. واجهها رمسيس الثالث فى معارك بحرية وبرية طاحنة انتهت بهزيمة الأوربيين ورحيلهم عن بلاد المشرق، ثم عاد رمسيس الثالث إلى الغرب مرة أخرى ليواجه بنفسه هجمات تلك الشعوب عى ليبيا، فاستطاع أن يدمرها ويقتل ويأسر اعداداً كبيرة منها بما فيهم القائد نفسه.

ثم يعود رمسيس الثالث إلى الشرق مرة أخرى ليطمئن بنفسه على حدود المملكة واستتباب الأمن.. فيتفقد تحصيناتها فى أعالى نهر الفرات.

وفى آخر حكم رمسيس الثالث يعود الكهنة إلى المؤامرات والدسائس... فكان الملك يقيم فى شرق الدلتا.. وكبير الكهنة يحكم فى طيبة بالصعيد، فانقسمت مصر إلى عدد من الدويلات، وانفصلت على أثر ذلك بلاد المشرق العربى.

وهكذا نرى أن «مركزية السلطة» فى المملكة العربية كلها كانت مرتبطة بمركزية السلطة فى مصر، وحينما تنقسم مصر على نفسها ، تنقسم البلاد العربية بدورها، وتتحول إلى عدد من الدويلات.

ثم يأتى «ششنق»، وهو زعيم ليبى كان يعيش في «أهناسيا» عاصمة مصر مع قبيلته.. فيتولى عرش المملكة، وينتقل بالعاصمة إلى «تل بسطة» قريبا من الزقازيق الحالية - وربما كان هذا هو السبب الذى جعل مانتون المؤرخ المصرى القديم يقول بأن هذه الأسرة أصلها من كل بسطة.

ويؤسس ششنق الأسرة الواحدة والعشرين.. ويقول أحمد فخرى فى كتابه «مصر الفرعونية».. أنه بالرغم من أن أبناء هذه العائلة كانوا غريبين عن البلاد.. إلا أن قد مضى ستة أجيال بعد تمصيرهم واعتناقهم للديانة المصرية.. ولم يكن لهؤلاء الملوك وطن يعرفونه غير مصر.. أو يعتمدون فى حكمهم للبلاد على قوة من خارجها أو يخدمون جيرانها أو يفرضون جزية

عليها لحساب بلد أخر.. ولهذا فإنه من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود هذه الأسرة على عرش البلاد أنه استعمار ليبى.. أو أن مصر قد فقدت استقلالها، وأنها محكومة بغير أبنائها، ففى كثير من بلاد الأرض، فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحالى هناك عائلات ملكية من أصول أجنبية.. ولكن لم يقل أحد أن إنجلترا يحكمها الألمان أو أن اليونان وبلجيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية أو أنها فاقدة لاستقلالها لأن ملوكها الحاليين من أصل ألمانى».

وكلام الدكتور أحمد فخرى نعتبره هو ردنا على اعتبار شيشنق أجنبيا.. فإذا كان شيشنق أجنبيا فى مصر كما يقول لويس عوض، فماذا يعتبر احمس ورمسيس الثانى والثالث وكل الملوك المصريين الذين حكموا سورية والعراق والسودان.. بل وليبيا ذاتها؟

وقد أعاد «شيشنق» – الحاكم الأجنبى – الحكومة المركزية فى مصر، بعد أن كانت قد فقدتها لمدة طويلة، وأعاد توحيد مصر من جديد، ثم ينتقل منها لتوحيد المملكة العربية كها مرة أخرى، فيقود حملة إلى فلسطين، ويؤدب اليهود الذين كانوا يعيثون فى الأرض فساداً.. وقد ذكرت التوراة أنباء تلك الحملة فى سفر الملوك. ويعيد شيشنق لمصر مكانتها التى كانت قد فقدتها فى بلاد المشرق العربى.

وهكذا نرى أن المركزية فى مصر لم تكن تكتمل إلا بالمركزية فى

المملكة العربية كلها .. سواء كان حاكم مصر مصريا أو «أجنبيا» من البلاد العربية كما يقول الدكتور لويس عوض!.

وبعد ششنق انقسمت مصر على نفسها من جديد، فعادت سلطة امراء الأقاليم، إذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشية من سطوة جاره»، وظل هؤلاء الأمراء مستقلين لكل منهم جيشه الخاص، وبلاطه المستقل، ولكن يأتى «بعنخى» من الجنوب ليعيد توحيد البلاد مرة أخرى، بعد معارك طاحنة مع امراء الشمال.

ثم جاء الملك الأشورى «اسرحدون» وابنه «اشورها نيبعل» ليعيد توحيد المملكة العربية من جديد، بعد أن انصرفت مصر إلى حروبها الداخلية وتقوقعت على نفسها، وتخلت عن مسئولياتها القومية فى المشرق والمغرب.

ثم جاء «بسمتك» ليعيد توحيد مصر من جديد تحت إمرته... ويقوم بانقلاب على الآشوريين ليأخذ منهم حكم المملكة العربية كلها، ويعيد لمصر مكانتها فى القيادة التاريخية.

وهكذا نرى مرة أخرى أن مركزية الدولة فى مصر لم تكن تكتمل فى نظر ملوكها، إلا بمركزية الدولة العربية كلها، فما كان الملك من هؤلاء يفرغ من توحيد شمال مصر وجنوبها حتى ينتقل فوراً إلى توحيد البلاد العربية كلها.. لأنه لا وحدة داخل مصر إلا بالوحدة مع البلاد العربية.

شرقا وغربا وشمالاً وجنوبا.

ولكن الحرب والخلافات بين البابليين والاشوريين والمصريين جعلتهم يتعرضون جميعاً للاحتلال الأجنبى لأول مرة فى تاريخهم، فقد جاءهم الفرس من الشرق، واليونان من الغرب، واطبقوا عليهم جميعاً ، ولم يسلم أحد منهم من الاحتلال. ويبقى العرب تحت الاحتلال الفارسى والأوربى حتى يجىء العرب المسلمون من الجزيرة العربية ليخلصوا أشقاءهم فى المشرق والمغرب العربى، ويعيدوا توحيد الوطن العربى من جديد فى ظل الخلافة الإسلامية.

وقد بقى العرب دولة واحدة - إلا فى بعض الفترات القصيرة - حتى جاء الاستعمار الأوربى الحديث ليعيد تقسيمها إلى دويلات ليسهل عليه حكمها والسيطرة عليها.. ومن ثم استنزاف خيراتها.

ألا يرى الدكتور لويس عوض فى كل ما مر على تلك المنطقة من العالم تاريخيا مشتركا.. فماذا يكون التاريخ المشترك إذن؟

لقد كان المصرى حاكما فى سورية وفلسطين والعراق وليبيا والسودان، وكان السورى حاكما، والمصريون والعراقيون والليبيون والسودانيون محكومين.. وكان العراقى والليبى والسودانى، حاكما مرة ومحكوماً أخرى، ولم تكن «الدولة المركزية» الى يرجع إليها الدكتور لويس عوض «القومية المصرية» والحضارة الفرعونية، لم تكن تلك الحكومة

المركزية حكراً على المصريين وحدهم.. كما لم تكن حكراً على أى من البلاد الأخرى فكان يتولاها الأصلح بغض النظر عن البلد الذى ينتمى إليه.

وحينما كانت مصر تعاني من الضعف والانقسام.. كان الجميع يعانون، وحين كانت تنهض مصر، كان الجميع ينهضون، وتوحيد مصر كان يتبعه توحيد كل البلاد العربية قاطبة، كما أن توحيد أى بلد عربى كان يتبعه توحيد البلاد العربية الأخرى.

كان أحمس ورمسيس وتحتمس.. مصريين.

وكان شيشنق الأول حتى شيشنق الخامس.. ليبيين.

وكان بعنخى وطهرقا.. سودانيين.

وكان أرسو واسرحدون واشورها نيبعل.. سوريين.

وكان بنوخذ نصر وغيره.. عراقيين.

وكان هؤلاء جميعاً يحكمون الأرض العربية كلها.

وكانت ملكات مصر.. وأمهات ملوكها من ليبيا وسورية وبلاد النهرين وكان الحكم فيها جميعاً للأصلح والأقوى، وحينما لم يعد هناك من هو أقوى أو أصلح بينهم جميعاً.. جاء الاستعمار الشرقى الفارسى والغربى اليونانى.. ليحتل الجميع، فلم يحتل بلداً ويترك آخر.. وكأن الاستعمار أبى ألا أن يوحد بينهم فى الآلام والمعاناة..!!

هذا هو تاريخينا المشترك وقد ركزنا فيه على التاريخ الفرعونى القديم.. ذلك لأن الدكتور لويس عوض يأخذ علينا نحن دعاة الوحدة العربية التركيز على عصور ما بعد الفتح الإسلامى، فيتساءل مستنكراً (الأهرام ١٩٧٨/٤/٢).

«كيف اتفق أن مؤسس هذه الدعوة وهم أصحاب البعث العربى، يبدأون تاريخ المنطقة من الخليج إلى المحيط منذ الفتوحات العربية العظمى، وكان تاريخ المنطقة كلها لم يبدأ إلا منذ بزوغ نجم العرب فى السياسة العالمية، وكأنما سومر وبابل واشور فى الطرف الشرقى منها، وفينيقيا وكنعان ومصر القديمة فى وسطها ومعين وسبا وحمير فى جنوبها وليبيا وقرطاج وموريتانيا فى غربها، لم تكن لها تاريخ، قبل ذلك الفتح بآلاف السنين.. أليس من العرقية هذا التركيز على بداية التاريخ القومى فى المنطقة بانتفاضة العرب التاريخية فى القرن السابع الميلادى وما بعده مع أن تاريخ المنطقة وحضارتها قبل ذلك بكثير»؟!

وهو يقول فى الأهرام (١٩ مارس ٧٣) تحت عنوان «مانتون عبوساً»

«ما أحوج تلميذنا المصرى أن يتعلم ما يتعلمه التلميذ الفرنسى فى نفس سنه من أن مصر محمية من الجنوب بالشلالات ومن الشرق والغرب بالصحارى، ومن الشمال بامتداد سواحلها اللينة، فهى ليست مهددة إلا فى الشمال الشرقى عن طريق برزخ السويس - أكثر من دخلها دخلها

من هذا الطريق»!

ويضيف دكتورنا العظيم قائلا:

«فالتلميذ المصرى يعلم أن أحد وجهى لوحة نارمر، يصور اخضاع مينا (نعرمر) لسكان الوجه البحرى.. بينما يقول الكتاب الفرنسى: والصقر يمثل ملكاً ربط فى اللجام – أى أخضع لسلطانه – دولة مقهورة من دول الشمال بيضاوية الشكل بها رأس سورى يتميز باللحية المدببة، والصقر واقف على ست من زهرات اللوتس – أى على ٦٠٠ أسير، والسنارة المصورة فى أسفل بغير شك تدل على اسم الدولة، والمستطيل المملوء بالخطوط المتموجة يدل على أن هذه الدولة تقع على البحر وهذان الرمزان يشيران إلى سورية»!!

ويقول لويس عوض نقلاً عن كتاب التاريخ لتلاميذ المدارس الفرنسية (أى كتاب وأية مرحلة دراسية – الله أعلم!!).. المهم يقول الكتاب الفرنسى أو لويس عوض نقلاً عن الكتاب الفرنسى : «لقد اختلطت فى المصريين القدماء سلالات مختلفة ومع ذلك فيتميز بينهم نموذجان بشريان مختلفان: نموذج أكثر امتلاء، اعضاؤه قصيرة وغليظة ووجهه عريض وأنفه افطس، ونموذج أطول قامة وأعضاؤه رقيقة طويلة...، وحتى اليوم لا نزال نجد وجوها تشبه تماماً وجوه التماثيل التى تخرج من الحفائر»!

ثم يضيف الدكتور لويس عوض!

«إنى بحثت عبثا فى مقررات التاريخ القديم للابتدائية المصرية عن كلمة فرعون وفراعنة فلم أعثر لها على أى أثر، رغم أن الحديث كله عن الفراعنة ومصر الفرعونية، كأنما النية مبيته على محو هذا الاسم بالممحاة من سجل الماضى ومن ذاكرة ابنائنا، ربما أرضاء لغلاة البعثيين أيام وحدتنا مع سورية، فقد وضعت أكثر هذه الكتب المقررة أيام الوحدة، مفصلة مع ظروف تلك الأيام التى طولبنا فيها بمحو اسم مصر من الخريطة ومن الذاكرة»!!

نعم.. نحن متفقون مع الدكتور لويس عوض على أن تاريخ المنطقة لم يبدأ منذ بزوغ نجم العرب فى السياسة العالمية، فقد كان هناك عدد من الدول والحضارات فى تلك المنطقة، وكلها كان لها تاريخ قبل ذلك التاريخ بآلاف السنين، ونرجو ألا يعود الدكتور لويس عوض ويتهمنا بالعرقية والنازية حينما نذكر ما يقوله له المؤرخون، من أن هذا التاريخ الذى يمتد بسنواته إلى آلاف السنين قبل الفتح العربى، كان تاريخا مشتركا، ولم يكن مجموعة من «التواريخ» لعدد من الحضارات، بل كان تاريخا واحداً لحضارة واحدة تعددت مراكزها بتعدد ظروفها البيئية.

وقبل أن يسارع الدكتور لويس عوض ويتهمنا بأية تهمة من التهم التى اعتاد أن يوجهها إلينا، نقول له بأننا لسنا نحن الذين نقول هذا الكلام، فقد أجمع عليه المؤرخون عربا وأجانب، و مسلمين ومسيحيين،

وحدويين وانعزاليين.. وإذا لم يصدق الدكتور لويس عوض هذا الكلام، فليسمح لنا أن نشير عليه بالاطلاع على تلك الكتب والمراجع: المجلد الثامن من دائرة المعارف البريطانية، ودكتورنا ضليع - كما نعرف - فى اللغة الانجليزية، وكتاب «تاريخ العرب» للمؤرخ اللبنانى فيليب حتى الذى كان استاذاً للتاريخ اللعربى بجامعة برنستون الأمريكية، وكتاب «مصر الفرعونية» للأستاذ أحمد فخرى، وهو - رحمه الله - أستاذ أجيال فى التاريخ الفرعونى، وكتاب «العصور القديمة» للمؤرخ الأمريكى الشهير برستد، وكتاب «مصر القديمة» للعلامة المصرى سليم حسن. وإلى كتابات تيودور الصقلى، ويوسيفوس اليهودى وكلوت بك الفرنسى (لمحة عامة إلى مصر).

كل هؤلاء - وغيرهم عشرات - يجمعون على أن الحضارة المصرية القديمة، لم تكن سوى فرع من حضارة أكبر هى «الحضارة الشرقية» كما يسمونها فى الغرب، و«الحضارة العربية» كما نسميها نحن، وهو الاسم الأصح.. وأن تاريخ مصر فى تلك الفترة لم يكن سوى وقائع وأحداث اتصالها وتأثيرها وتأثرها بالبلدان العربية العربية.. سلماً وحرباً، اتصالاً وانفصالاً.

ولم يقل أحد من المؤرخين أنه كان لمصر تاريخ مستقل عن تاريخ البلدان التى حولها، كما أن تاريخ تلك البلاد لم يكن - بدوره - مستقلاً

عن تاريخ مصر.

تاريخ واحد جمع أحداثه من هنا ومن هناك.

وإذا كان هذا شأن التاريخ، فقد كان أيضا شأن الحضارة، فالحضارة المصرية منذ عصر ما قبل الأسرات، واختراع الكتابة. كانت على اتصال بالحضارة العربية فى مراكزها الأخرى، أخذت منها وأعطتها، ولم تكن علاقاتها - إذن - بتلك الحضارات علاقة تنافس بل كانت علاقة تعاون تام أدى إليه الإحساس بوحدة التاريخ ووحدة الأهداف، ووحدة المصلحة.

وقد كانت الكتابة العربية التى نعرفها اليوم، هى نتاج مشترك لجميع تلك المراكز الحضارية فى البلاد العربية، فقد شهدت منطقة وادى المكتب فى سيناء أول خطوة للانتقال من الكتابة التصويرية، إلى الكتابة بالحروف ولم تكن صدفة تلك التى جعلت من سيناء المهد الأول للكتابة العربية، بل للابجدية العالمية، فقد كانت تلك المنطقة - سيناء - ملتقى الحضارات العربية فى المشرق والمغرب، وكان فيها عدد كبير من عمال المناجم الكنعانين الذين كانوا يعملون جنبا إلى جنب مع أخوتهم المصريين، فتعاون الجميع على الانتقال بالكتابة من المرحلة التصويرية إلى المرحلة الأبجدية، ومنها انتقلت إلى الفنينيقيين فى الشمال واليمنيين بالجنوب، فتطورت إلى الخط النبطى الذى هو الأساس فى الكتابة العربية

الحالية.

ومن فينيقيا نقل «قدموس» الفينيقى تلك الأبجدية إلى بلاد اليونان بترتيب حروفها التى نعرفها حتى اليوم فى الكتابة العربية.. ودكتورنا لويس عوض حاصل على الدكتوراة فى الأساطير اليونانية، ولابد أنه قد تأكد من اعتراف اليونانيين فى أساطيرهم بما قدمه لهم قدموس الفينيقى.. وهو ما اعترف به مؤرخهم هيرودوت فى كتاباته.

كما أن الدكتور عوض لابد أنه يعرف المفردات والكلمات العربية الكثيرة فى اللغة اليونانية القديمة والحديثة والتى انتقلت إليهم عن طريق الفينيقيين. وكما كانت الكتابة العربية – والعالمية – نتاجاً مشتركاً لمراكز الحضارة العربية القديمة.. فقد كان هذا شأن كل المظاهر الحضارية التى نفخر بها الآن ربما أكثر – من دكتورنا، ونعتبرها دليلاً على وحدة التاريخ العربى منذ آلاف السنين وقبل الفتح الإسلامى.

فقد أخذ المصريون من العراقيين – كما يقول أحمد فخرى – طريقة البناء بالحجر، والأختام الاسطوانية التى ظهرت فجأة فى الحضارة المصرية، وكانت قد ظهرت من قبل فى الحضارة العراقية القديمة.

كما يقول العقاد فى كتاب الحضارة العربية أقدم من حضارة اليونان والعبرانيين.. «أن المصريين أخذوا عن السوريين طريقة بناء السفن منذ قديم الأزل، وذلك لتوفر أخشابها فى تلك المنطقة (أخشاب

الأرز) وعدم توفرها فى مصر».

فإذا كنا الآن نفخر بالبحرية المصرية القديمة، التى جابت البحار القريبة و البعيدة بهدف الحرب والتجارة، فإننا مدينون فى ذلك لاشقائنا فى سورية، الذين سمحوا لنا بأخشابها، غير معتبرين ذلك على حسابهم وحساب حضارتهم.. بل معتبرين ذلك لحسابهم وحساب حضارتهم.

كذلك لولا تعاون الحضارتين المصرية والسورية، لما استطاع المصريون الحصول على الأخشاب التى مكنتهم من بناء الأهرامات، التى يعتبرها فراعنة اليوم. رمزاً لهم، ونعتبرها نحن الوحدويين رمزاً للتعاون والأخوة والتاريخ المشترك بيننا وبين السوريين.. بل أن طريقة البناء بالطوب كانت طريقة عراقية قبل أن تكون مصرية.

وإذا كنا نفخر بأن مصر أول من عرفت «الوحدة» والحكومة المركزية، التى يرجع إليها الدكتور لويس عوض العامل الأهم فى بناء الحضارة المصرية القديمة، فإنها قد عرفت ذلك على يد «مينا» الذى يؤكد العلامة سليم حسن أنه ينتمى لاقوام جاءت إلى مصر من المشرق العربى عن طريق البحر الأحمر.

وإذا كنا نفخر بأن مصر قد عرفت الدين - الذى يرجع إليه كثير من المؤرخين أساس الحضارة المصرية القديمة - فقد كان أول إله فيها هو «بتاح» الذى يقطع جورجى زيدان باسمه السامى ويقول أنه «أقدم إلهة

العرب»!!.

ويقول المؤرخون أن شكل أبى الهول المجنح هو من مبتكرات عرب المشرق، كما يقول أحمد فخرى، وقد وفدت إلى مصر فى عهد الدولة الحديثة جماعة من الكنعانيين العرب وأقاموا بجوار أبو الهول وسموه (برهور) وتحرفت الكلمة إلى أبى الهول الذى كان معبوداً لهم.!

وحينما جاء اخناتون ودعا إلى التوحيد، لم يختص بدعوته المصريين وحدهم، بل وجهها إلى السوريين والسودانيين والمصريين سواء بسواء، ونحيل الدكتور لويس عوض إلى أناشيد اخناتون التى ذكر فيها أسماء «الدول» العربية قبل اسم مصر..!!

وجاء إبراهيم من العراق، ومثله فعل يوسف الذى جاء من فلسطين، وعيسى من بعده، وذهب موسى من مصر إلى فلسطين، وتزوج من أبنة شعيب العربى.

حتى الدين وثنيا كان أو آلهيا – كان دينا لكل العرب، ولم يكن لشعب عربى دون الآخر.

هكذا كانت الحضارة واحدة.

وهكذا كان الدين.. واحداً.

وهكذا كانت الدولة.. واحدة..

هذا هو تاريخنا قبل الفتح العربى، وليس فيه ما نخجل منه، بل

على العكس، كل ما جاء فيه من أحداث، بما فيها الحروب، مثار فخرنا واعزازنا، فلم تكن تلك الحروب بين أمم أو دول، وإلا اعتبرنا حروب «مينا»، وكل الحروب التى قام بها الفراعنة بعده داخل مصر، حروبا بين دول وأمم مختلفة – وليست حروبا بين أسر وعائلات وقبائل، كان هناك مثلها بين القبائل العربية قبل الإسلام، ولم يقل أحد أن «أيام العرب» التى سجلوا فيها أخبار حروبهم القبلية، كانت بسبب أنهم لا ينتمون إلى أصل واحد وتاريخ وحد، وحضارة واحدة، نحن نتفق مع الدكتور لويس عوض على أنه من الخطأ أن نبدأ تاريخ المنطقة من المحيط إلى الخليج منذ الفتوحات «العربية» العظمى» وكأنما تاريخ المنطقة كلها لم يبدأ إلا منذ بزوغ نجم العرب فى السياسة العالمية».

ولكن بزوغ نجم العرب فى السياسة العالمية لم يبدأ بالفتح العربى، بل بدأ مع بداية الحضارة العربية فى مراكزها، قبل الفتح «العربى» بالآف السنين، حيث لم تكن السياسية العالمية – فى تلك العصور – سوى السياسة العربية ذاتها.. فهل يتفق معنا الدكتور لويس عوض على ذلك؟ إذا لم يتفق، يكون بذلك هو الذى يقسم التاريخ إلى «حلقات» منفصلة ولسنا نحن الذين نفعل ذلك.. أنه يقول بأن التاريخ الفرعونى أو البابلى أو الأشورى أو الحميرى، حلقات منفصلة تمام الانفصال عما جاء بعدها من حلقات، وأن تاريخ تلك «الأمم» و«الشعوب» قد انتهى بالفتح الإسلامى

(العربى).. وهذا كما نعلم ليس صحيحاً على الاطلاق، فهو لايتناقض فقط مع حقائق التاريخ وشواهدها بل يتناقض أيضا مع طبيعة الأمور وواقعها.

فالدين الجديد لم يأت بشعب جديد، كما أن الدين الجديد لم يأت به شعب جديد.

إن الشعب الذى أعطى الدين، والشعب الذى أخذه، كلاهما كان ولايزال - موجوداً ومستمراً، ولو كانت الحضارة الجديدة متناقضة أو مختلفة عن الحضارة القديمة للفظتها على الفور، وهو ما لم يحدث كما نعلم جميعاً. فقد جاءت تلك الحضارة الإسلامية الجديدة لتصبح - بعد سنوات قليلة - هى حضارة العالم.

ولو كانت تلك الحضارة منفصلة عن الحضارات التى سبقتها لاحتاجت إلى مئات السنين لكى تنضج وتزدهر، ولكن لأنها جاءت فى بيئة حضارية فقد اذدهرت سريعاً وانتشرت لتشمل العالم كله فى سنوات معدودة.

ولو كانت الحضارة العربية الإسلامية مناقضة للحضارات العربية السابقة، لدخلت فى صراع معها، وقضت أحداها على الأخرى، ولكن الذى حدث أن الحضارة العربية الإسلامية هضمت الحضارات العربية السابقة وأفرزت عصارة حضارية جديدة ذات طابع إسلامى.. فتحولت المسلة

الفرعونية إلى مأذنة فى مسجد، وتحول شكل الهرم إلى قبة فى جامع، وأعمدة المعابد أصبحت أعمدة فى القصور، ولم يهدم المسلمون الكعبة» «أول بيت للناس» بل تحول إلى مكان مقدس يؤمه المسلمون من جميع أنحاء العالم. وكأن الله قد أراد من وراء ذلك أن يحثنا على تقديس حضارتنا القديمة وعدم نبذها.!!

إذن نحن لم نهدر تاريخ المنطقة وحضارتها قبل الإسلام.. كما يتهمنا الدكتور لويس عوض.. بل حولناها إلى أماكن مقدسة!!.

ثم نأتى إلى كلام الدكتور لويس عوض لنرى «مانتون عبوسا»، وما نتون هذا مؤرخ مصرى لتاريخ مصر القديم، ونسأل الدكتور: لماذا ما نتون عبوساً يادكتور؟ فيقول: لأن التاريخ الفرعونى لمصر قد أهمل ومحى من كتب التاريخ التى تدرس لأطفالنا! ولكن ماذا تريد لأطفالنا أن يتعلموا يادكتور؟

يجيب الدكتور: ويجب أن يتعلم إطفالنا تزوير التاريخ.. نعم تزوير التاريخ!!.

وتعالوا لنرى هذا التاريخ المزور الذى يريد الدكتور لويس عوض لأطفالنا أن يتعلموه.

يقول الدكتور عوض (الأهرام ١٩ مارس ٧٣) :

«فالتلميذ المصرى يعلم أن أحد وجهى لوحة نارمر يصور اخضاع

مينا نعرمر لسكان الوجه البحرى بينما يقول الكتاب الفرنسى : والصقر يمثل ملكاً ربط اللجام - أى أخضع لسلطانه - دولة مقهورة من دول الشمال بيضاوية الشكل بها رأس سورى يتمز باللحية المدببة، والصقر واقف على ست من زهرات اللوتس أى على ٦٠٠٠ أسير، والسنارة المصورة فى أسفل بغير شك تدل على اسم الدولة، والمستطيل المملوء بالخطوط المموجة يدل على أن هذه الدولة تقع على البحر.. وهذان الرمزان يشيران لسورية»!! وبالطبع - فإن الدكتور لويس عوض - لا يقول أى كتاب فرنسى هو الذى تضمن مثل هذا الهراء النجس، وكان احرى به كرجل يدعى العلم - أن يوثق لنا مصادره لنستطيع الرجوع إليها وتحرى الدقة فيما كتبه، ولكنه لم يفعل.

ونحن سنفترض معه أن هناك كتابا فرنسيا قد تضمن فعلاً هذا الهراء الذى أورده الدكتور عوض.. فهل يريد لنا دكتورنا الميجل أن نعلم أطفالنا تاريخ مصر والبلاد العربية بنفس الطريقة التى يتعلمه بها تلاميذ المدارس الفرنسية؟

يقول الفيلسوف الفرنسى رينان - وهو أحد المستشرقين الذين يكرهون العرب كراهية شديدة - فى كتاب «ماهى الأمة» :

«إن التاريخ كثيرا ما يكون خطراً على الوحدة القومية ومن ثم فإن نسيان بعض الوقائع التاريخية، وحتى إلتزام جانب الغلط والخطأ فى

بعضها، يعتبر من الأمور الضرورية لتكوين الأمم»!

ويبرر رينان بقوله «إن كثيراً من الأحداث التاريخية المشتركة، تنطوى على عنصر القهر والإرغام، بين فئات الأمة الواحدة، وأن تذكر هذه الأحداث يؤدى إلى تفتيت الأمة»!

لقد كان إلتزام جانب الخطأ والغلط فى ذكر الأحداث التاريخية، نظرية رينان التى انتشرت من فرنسا، ومنها إلى جميع أنحاء العالم، فكانت نظرية فرنسية بحق، فدعاه الوحدة كانوا يلتزمون بالخطأ والتحريف فى تاريخهم المشترك خاصة فى تلك الأحداث التى تنطوى على «القهر والارغام» خوفاً من تفتيت عناصر الأمة الواحدة.

أما دعاة التجزئة والتفتيت من المستعمرين خاصة، فكانوا يلتزمون جانب الخطأ والغلط فى التاريخ المشترك للأمم المستهدفة.. تكريساً للتجزئة وتفتيت عناصر الأمة الواحدة..!!

فلم يكن غريبا إذن أن يلتزم مؤلف الكتاب الذى أشار إليه الدكتور عوض - وهو مؤلف فرنسى ببلد رينان صاحب نظرية التزوير - جانب الخطأ والغلط فى ذكر أحداث التاريخ العربى، ليؤدى بذلك إلى تفتيت فئات الأمة الواحدة، لأنه إذا كبر الطفل الفرنسى ودخل بلاط السياسية الاستعمارية الفرنسية، كان قادراً على النظر إلى العرب كأعداء، عاملاً على ترسيخ ما تعلمه من التاريخ منذ صغره.

نقول ليس غريبا حقاً على المؤلف الفرنسى أن يفعل ذلك.. ولكن الغريب حقا هو دعوة الدكتور لويس عوض لنا بتعليم أطفالنا تاريخ «قومهم» نفس ما يتعلمه أطفال فرنسا عن تاريخ «أعدائهم» دون تمحيص أو تدقيق للحقيقة.

وبالطبع فإننا لا ندعو الدكتور عوض – أو أحد غيره – إلى الالتزام بجانب الخطأ والغلط والتحريف فى ذكر أحداث تاريخنا المشترك.. بل ما ندعوه إليه هو التزام جانب الدقة والتمحيص، ووهو الجانب الذى يتصف به العلم والعلمية – أيا كانت نتيجته.

يقول العلامة أحمد فخرى، وهو عالم كبير – لم يتهمه أحد بالبعثية أو القومية أو الناصرية فى كتابه القيم «مصر الفرعونية» شارحاً نفس الصورة التى شرحها الكتاب الفرنسى لأطفاله، والتى يدعونا الدكتور عوض لشرحها بنفس الطريقة :

«وعلى أحد الوجهين وهو الخلفى منها، نرى الملك «مينا» وعلى رأسه تاج الجنوب، ويقبض على ناصية عدو رافع أمامه اسمه «وا ع – شى» وقد رفع بيده اليمنى دبوس قتاله ليهوى به على رأسه، وأمام الملك نرى المعبود حورس على شكل صقر يقبض بيده على حبل يجر به رأس عدو له يعلوه ست أعواد من نبات البردى يمثل كل منها عدد ألف، أى أن المعبود حورس تمكن من أعدائه وسلم إليه ستة آلاف أسير منهم، ويمشى خلف

«نعرمر» – مينا أحد أتباعه وقد حمل فى يده اليمنى إناء، وفى يده اليسرى يحمل خفى الملك، وفى أسفل اللوحة نرى أثنين من أعدائه وفوق كل منهما اسمه، أما الوجه الآخر فيختلف إذ يحتل الجزء الأول منه رسم حيوانين استطالت أعناقهما والتفا حول بعضهما فتركت دائرة بينهما، وقد أمسك بمقود كل من الحيوانين أحد الاتباع ليجذبه بعيداً عن الآخر، وفى الجزء الأسفل من اللوحة نرى ثوراً وهو يمثل أيضا الملك يحطم بقرنيه أحد الحصون، وقد ارتمى شخص يمثل أصحاب هذا الحصن تحت قدمى الثور، أما الثلث الأعلى من اللوحة فيملأ فراغه منظر آخر، نرى فيه نارمر وقد ارتدى تاج الشمال ويمشى وراءه ذات الموظف الذى نراه على الوجه الأخر، ونرى موظفا ثانيا يسير أمامه، وقد تقدمه أربعة من الاتباع يحملون أربعة من الآلهة وأمام تلك الأعلام خمسة صفوف فى كل واحدة منها جثتان لشخصين قطعت رأساهما».

ويضيف أحمد فخرى شارحاً الصورة: «ولاشك أن المناظر التى على هذه اللوحة تسجل انتصار «نعرمر» فى الحرب، وتسجل أيضا احتفاله بذلك النصر وقد وضع على رأسه تاج الشمال «الدلتا أو الوجه البحرى» بالرغم من أن اسمه مكتوب من أعلى هذا الوجه فإن الفنان أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى أن الذى يلبس تاج الشمال «الدلتا» ليس إلا نارمر فكتب اسمه مرة أخرى أمام وجهه».

أم تراه يتهم الدكتور فخرى «بالقومية والبعثية والنازية» لأنه التزم المنهج العلمى الصحيح الذى فرض عليه الحياد الكامل، ولم يلتزم المنهج «الرينانى» الشهير فى تزوير التاريخ وكتابته على الطريقة الفرنسية.

ونحن نستطيع أن نقرأ عن حوادث الحروب «بين الدويلات المصرية» فى تلك الفترة فيما بقى من أناشيد عن ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة المسجلة ضمن نصوص الأهرام.. وفى بعضها إشارات إلى تلك الحروب، وإلى سكان الوجه البحرى، وإلى ملوكهم الذين قاوموا «غزو» مينا وكان سكان الجنوب ينعتونهم بألفاظ يعف القلم عن ذكرها!!.

فهل يريد الدكتور لويس عوض أن ندرس لأطفالنا تلك الشتائم الفظيعة، أم أنه يريد أن نلتزم بمنهج رينان فى كتابه التاريخ المزور.. ونقول لأطفالنا أن تلك الشتائم والنعوت المسجلة فى نصوص الأهرام، المقصود بها حكام سورية أو العراق أو ليبيا، وليس حكام الدلتا ومدنها؟!

إننا لن نقول لتلاميذنا يادكتور إلا التاريخ الصحيح والحقيقى، فليس فيه ما نخجل منه أو نحرفه، نعم لقد كانت هناك حروب بين شمال مصر وجنوبها وبين مصر وجيرانها، فمن قال أن تلك الحروب كانت بين أمم وشعوب ودول؟ وهل انتهت الحروب من العالم حتى تنتهى عندنا، لقد كانت هناك حروب أهلية فى انجلترا وفرنسا وامريكا واليونان، فى فترات كانت تتسم بالحركة والنشاط الدائم لبحث الأقوام عن وطن يلائم

الاستقرار الذى تنشده، ومن هنا جاءت الحروب التى لم تكن تدل على «عداء» مشترك بقدر ما كانت تدل على الرغبة فى حياة مشتركة. فهى حروب إذن من أجل الوحدة الاندماج وليست من أجل الفرقة والعداء.. كما يحاول لويس عوض أن يوهمنا.. ويريد لنا أن نوهم أطفالنا.

وفى نفس مقاله السابق.. يقول الدكتور لويس عوض:

«ما أحوج تلميذنا المصرى أن يتعلم ما يتعلمه التلميذ الفرنسى فى سنه من أن مصر محمية من الغزوات.. من الجنوب بالشلالات ومن الشرق والغرب بالصحروات، ومن الشمال بإمتداد سواحلها اللينة فهى ليست ممهدة إلا فى الشمال الشرقى عن طريق برزخ السويس، فاكثرمن دخلها.. دخلها من هذا الطريق..»!

وهنا ينتقل الدكتور لويس عوض من تزوير التاريخ إلى تزوير الجغرافيا، فهو أول من يعلم أن مصر بلد مفتوح من جميع الجهات أمام أعدائها خاصة من «العرب»..!!

فلم تمنع شلالات الجنوب «بعنخى» أو «طهرقا» السودان من الوصول إليها حتى منف.. ولم تمنع القبائل العربية القادمة من اليمن عبر باب المندب من الوصول إليها حتى الأسكندرية.. أو من الوصول منها حتى منطقة البحيرات فى السودان الأعلى.

ولم تمنع صحراؤها الغربية من وصول شاشنق الليبى مع قبائله

حتى «اهناسيا» فى المنيا وتل بسطه فى الدلتا وتأسيس الأسرة الواحدة والعشرين.. كما لم تمنع قمبيز والاسكندر من الوصول إلى واحة سيوة، ولم تمنع قوات أحمس الثانى ورمسيس الثالث من الوصول منها إلى ليبيا للدفاع عنها ضد الشعوب الأوربية، كما لم تمنع قوات مونتجمرى وروميل فى العصر الحديث.

أما صحاريها الشرقية فلم تمنع الاحامسة والرعامسة وغيرهم من الوصول إلى أعالى الفرات فى سورية والعراق، لتأسيس وحماية المملكة العربية هناك.

كما لم تمنع من وصول البابليين والاشوريين والكنعانيين والادوميين وغيرهم من العرب إلى مصر، ولم تمنع قمبيز الفارس، والاسكندر اليونانى، وعمرو بن العاص العربى وسليم الأول التركى ونابليون الفرنسى وموش ديان اليهودى.. لم تمنع هؤلاء الأجانب «جميعا» من الوصول إلى مصر.. ومنها إلى أى مكان آخر».

كذلك لم تمنع «امتداد سواحلها اللينة فى الشمال» الاستعمار الأوربى فى جميع العصور من الوصول إليها واحتلالها وامتصاص خيراتها، والفرنسيون أول من يعلم ذلك، خاصة وأنهم زعماء الحروب الصليبية التى جاءت مصر عن طريق «سواحلها اللينة» فى الشمال.

وهكذا ترى أن مصر لم تكن محمية فى أى وقت من الأوقات، بأى

حاجز طبيعى، مائى أو صحراوى، ولم تكن محمية إلا بسواعد أبنائها ودمائهم فى الدفاع عنها وعن استقلالها ضد المحتلين الأجانب، فلماذا يريد الدكتور عوض لابنائنا أن يتعلموا اسطورة «الحماية الطبيعية» بالرغم من أنها ليست سوى اسطورة.. لماذا لا نعلمهم أن مصر مهددة من جميع الاتجاهات وأن شيئا لم يحميها سواهم، وسوى سواعدهم ودمائهم؟ وأن الطبيعة بحاراً كانت أو صحارى، لن تستطيع حماية مصر من أعدائها خاصة فى عصور الأسلحة التى لا تعرف مثل تلك الموانع الهشة!

لماذا تريدنا أن نعلم أطفالنا أن يساووا بين الغزو الرومانى والتركى واليونانى والفارسى والانجليزى والفرنساوى.. وبين «الغزو العربى» كما تصر أنت فى معظم كتاباتك؟

– نحن نتفق معك فى أن أكثر من دخلها.. دخلها عن طريق برزخ السويس، ولكن يجب أن نفرق بين جميع الذين دخلوها. أن نفرق بين العرب وبين الاسرائيليين، وبين الصلبيين والمسلمين، بين «عيسى» وموش ديان، رغم أن كلاهما قد سلك نفس الطريق إلى مصر!!

جميع هؤلاء دخل مصر عن طريق برزخ السويس.. فهل كان جميع هؤلاء من أعداء مصر؟

هل كان عمرو بن العاص مساوياً بالأسكندر الأكبر.. لموش ديان.. بقمبيز؟

وهل كانت العائلة المقدسة مساوية للصليبين؟

ألا ترى معى – يا دكتور – أن ذلك تجاوز وافتراء على الحق.. والتاريخ.. ولا نقول الدين؟!

ثم..

ألا ترى معى أن أسطورة «الحماية الطبيعية» تتناقض مع ما قلته فى «السلالات المختلفة» التى اختلطت فكونت المصريين القدماء، وناقضت ذلك كله مع نظرية «السبيكة الواحدة» التى تميز المصريين عن غيرهم شرقا وغربا.

كيف يكون هناك نموذجان «بشريان مختلفان» فى بلد حبته الطبيعة «بالحماية الطبيعية»؟

لماذا نعلم أطفالنا أن القصير من شعبهم مختلف عن الطويل؟

وأن كلاً منهما ينتمى إلى سلالة مختلفة؟!

أنا لا أعرف سببا واحداً يجعل الدكتور لويس عوض يصر فى كل كتاباته عن مصر على مثل هذا الكلام الذى يتناقض ليس فقط مع العلم والتاريخ، ولكنه يتناقض – أول ما يتناقض – مع الواقع ذاته.

كيف يقول عالم مثل «أيليت سميث» : «إن الشبه بين وجوه أهل ما بين النهرين القدماء ووجوه الملكية المصرية كالشبه بين قطرتى ماء». بينما يقول الدكتور لويس عوض لأطفالنا بنظرية «النموذجين البشرين

المختلفين» فى مصر؟

وإذا كان الفرنسيون يقولون أنه حتى اليوم لا نزال نجد وجوها تشبه تماماً التماثيل التى تخرج من الحفائر،، فلماذا لا يحسبها الدكتور لويس عوض حسبة علمية منطقية منظمة فيقول إذا كانت وجوه اليوم وجوه عربية صميمة «تشبه التماثيل التى تخرج من الحفائر».. ألا يعنى ذلك أن أصحاب تلك التماثيل كانوا من العرب فى مصر؟!

نعم - هذه حقيقة يؤكدها جميع علماء الآثار والجغرافيا.. فلماذا ينكرها الدكتور لويس عوض وحده؟

ليس ذلك فقط بل يشكك فيها ولا يدع فرصة تمر دون أن يفعل ذلك غير مبال بحقائق العلم والتاريخ.. أو مشاعر الناس الذين يسوءهم أن يروا أصولهم وقد أصبحت ألعوبة فى أيدى العابثين.

لماذا هذا الاصرار الذى يبديه الدكتور عوض بعناد لإدخال المصريين معمل الاختبار وإجراء الاختبارات عليهم لإثبات ما يقوله؟ وإذا كان الأمر أمر مخابر ومعامل وجماجم وأنوف - فلماذا لا يصدق غير «أجهزته» هو، ولا يصدق - أو حتى يناقش.. النتائج العلمية التى توصل إليها الآخرون.. ومنهم العالم الشهير «شانتر» الذى أثبت أن العربى لا يختلف فى شىء عن القبطى أو المسلم فى مصر - لا قديما أو حديثا.. لماذا يصر الدكتور عوض على أن المصريين سلالة هبطت من السماء ليس

لها نظير في أقوام الأرض من حولهم؟!

ألا يعني ذلك أنه هو النازي.. ولسنا نحن!

مصر.. لها أكثر من معنى

** يستعرض الدكتور لويس عوض الأسماء التى فرضها الغزاة على عدد من الدول مثل بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، ثم يقول (الأهرام ١١/٥/١٩٧٨):

ولم ينجح غاز فى أن يغير اسم «ايجبت» [هت كابتاح] أى قصر روح الإله بتاح.. ولم ينجح غاز فى أن يغير أسمها الآخر «مصر».. «بيراوسير» أى «بيت الإله اوزوريس».. وقد بقيت منه آثار فى اسم بوصير «بوصير» التى كان اليونان يسمونها «بوزرويس».. لم ينجح فى تغيير اسم مصر إلا ابن من أبنائها.. حاسباً أنه بذلك يمكن أن يصبح امبراطور العرب.. ولكنه خرج من ذلك صفر الدين»!

والدكتور لويس عوض حينما يقول لم ينجح غاز فإنه يقصد «الغزاة العرب».. والدليل على ذلك أنه يقول «ولم ينجح غاز أن يغير اسم ايجيبت» ونسى الدكتور ان «ايجبت» هو الاسم الذى وضعه لمصر غزاة «آخرون» هم اليونان، فهو يفخر بخلود اسم لمصر وضعه اليونان، ويفخر أيضا بأن

احداً من الغزاة الآخرين لم ينجح فى تغييره..كما لو لم يكن اليونان أنفسهم غزاة لمصر!!.

ولكن لا أعرف – ولا أعتقد أن أحداً آخر يعرف غير الدكتور لويس عوض طبعاً – لماذا كانت مصر كلها مجرد «قصر» لروح الإله بتاح الذى لم يكن سوى إله فى مدينة منف وحدها عاصمة الدولة القديمة فقط طوال التاريخ المصرى كله.

ويؤكد المؤرخ اللبنانى الشهير جورجى زيدان فى كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» على عروبة الدولة القديمة، وعروبة بتاح الذى كان «أقدم إله عرفته العرب» ، ويؤيده فى ذلك العلامة المصرى سليم حسن الذى يؤكد على عروبة «مينا» مؤسس الأسرة الأولى فى الدولة القديمة. وبذلك كان من السهل علينا ونحن دعاة عروبة، أن نتمسك بتلك الحقائق التاريخية، ونقبل تفسير الدكتور لويس عوض لاسم مصر على أنه «قصر روح الإله بتاح» الذى لم يكن سوى إله عربى..

ويكون الدكتور عوض بهذا التفسير قد اعترف – دون أن يدرى طبعاً – بعروبة مصر.

كان من السهل علينا أن نقبل ذلك الفرض لولا أنه أبعد من فروض أخرى تبدو أكثر قربا إلى الحقيقة منه.

إذن نحن لا نرفض الفرض السابق لأنه يبعدنا عن المعنى العربى

لاسم مصر، كما نرفض الافتراض التالى الذى يجعل من مصر «بيت الإله اوزوريس» لأن مصر لو كانت «قصر» الإله بتاح لما أصبحت بيتا لاوزوريس، لأنها لا يمكن أن تكون بيتا وقصراً لإلهين معاً.. وإذا كان ذلك صحيحاً فأين بيوت وقصور ومعابد الإلهة المصرية الأخرى التى كانت أكثر أهمية من الإلهين السابقين؟

أين بيت «ست» وكان إله الصعيد، بل كان إله الدولة الحديثة فى عصر رمسيس الثانى وأبنائه.

وأين بيت ايزيس التى كانت معبودة الامبراطورية الرومانية كلها بما فيها روما ذاتها؟

وأين بيت «آتون» الذى كان معبود المملكة العربية فى عهد اخناتون؟

وأين بيت «رع» وبيت «آمون» وبيت «حتحور» وبيت «حورس»؟ أين بيوت هؤلاء جميعاً إذا كانت مصر كلها بيت بتاح أو أزوريس فقط؟!

إن اقتران مصر بأحد الإلهة.. يجعله اسماً محليا لا يتجاوز نطاق مدينة مصرية بعينها، فى عصر من العصور بعينه، لذلك كان فى رأينا كل اسم لمصر مرتبط بأحد آلهتها يعتبر اسماً مؤقتا ولا يتناسب مع فكرة الخلود المصرية الصحيحة.

فمصر ليست «مسرع» أى «مكان ابن رع» ولا هى «بيراوزير» أى «بيت اوزوريس» ولا هى «هت كابتاح» أى قصر بتاح، ليست مصر شيئا

من ذلك كله، لأنه لا يعقل أن تكون مصر ذلك كله فى وقت واحد وفى مختلف العصور، بينما كانت تلك الآلهة.. إلهة محلية، لها مكان محدد، ووقت محدد، مرهونا بمزاج الكهنة، أو بموقف الملوك.

كذلك ليست مصر – كما يقول ما سبيرو – مرتبطة باسم «مسرى» شهر الفيضان (اغسطس)، لأن مسرى حتى ولو كان شهر الفيضان فهو مجرد شهر واحد من أثنى عشر شهراً، فهل كان اسم مصر «موسميا» إلى هذا الحد؟ وماذا يكون اسمها إذن فى بقية المواسم الأخرى؟ ماذا يكون اسمها فى موسم الحصاد مثلاً وهو لا يقل أهمية فى حياة المصريين عن موسم الفيضان؟.

ثم أن مصر لم تعرف اسماً واحدا طوال تاريخها الفرعونى.. الأمر الذى يجعلنا فى حيرة أمام ترجيح اسم على أخر، فهى بالإضافة إلى كل ما سبق، كانت «كيما» أو«تاكيما» بمعنى الخمرية، و«تاوى» بمعنى الأرض، و«باقة» بمعنى زيتونة كناية عن الخضرة الدائمة، وهى عين الرب وعين شمس وذات المحرابين، وغير ذلك عشرات الاسماء التى تدل على عشرات المعانى، وكلها كانت تطلق فى ذات الوقت، الأمر الذى يجعلنا أمام امصار» وليس أمام «مصر» واحدة.!

هذا ويقول ابن الكندى – وهو فيلسوف عربى من القرن الرابع الهجرى – أن مصر هو اسم حفيد نوح عليه السلام.. ويستند الكندى فى

هذا الرأى إلى أن عبد الله بن العباس قال «دعا نوح عليه السلام ربه لولده «مصر» فقال اللهم بارك فيه وفى ذريته واسكنه الأرض المباركة، التى هى أمن البلاد وغوث العباد، ونهرها أجمل أنهار الدنيا، وأجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها،،-

ومعنى كلام ابن العباس الذى نقله لنا الكندى على لسانه أن المصرين هم أحفاد حام بن نوح، وبذلك فإنهم لاينتمون إلى الجنس السامى الذى ينتمى إليه اليهود. وواضح أن الكندى وابن عباس قد نقلا ما جاء من التوراه فى سفر التكوين، دون الإلتفات إلى ماقصده كتبة التوراة الذين أرادوا أن يحرموا المصرين من شرف الإنتماء إلى الجنس السامى المتميز- فى نظرهم - لأنه الجنس الذى ينتمون إليه (١١).. وذلك عقابا لهم على كل ماأقترفوه فى حق اليهود من أضطهاد وتنكيل، وهو نفس موقفهم من الفنيقيين الذين لايشك أحد غير اليهود، فى صحة إنتمائهم إلى السامية ولكن كتبة التوراة قالوا بإنتماء الفنيقيين إلى الجنس الحامى لإنهم كانوا على عداء معهم كما كان المصريون.. وذلك فى الوقت الذى أدخل فيه التوراتيون أقواما مثل العيلاميين.. وهم من الجنس الآرى فى زمام السامية لإنهم كانوا على وفاق معهم !!

وحينما جاء الكندى وابن عباس رددا ماجاء فى التوارة دون الإلتفات إلى تلك السياسة التاريخية اليهودية فى تزوير التاريخ بما يناسب

أهدافهم.

وهناك وثيقة محفوظة فى شكل رسالة بعث بها أمير كنعانى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد يطلب فيها حماية فرعون مصر ويسأذنه فى إرسال أهله إلى «ماتو مصرى» أى الأراضى المصرية.

ويقول الدكتور- العلاقة المصرى عبد العزيز صالح فى كتاب «حضارة مصر الفرعونية وآثارها» إن الكنعانيين والبابليين والأشوريين قد عرفوا مصر بأسمها الحالى وكانوا يسمونها مصرى ومسرى ومصر ايم كما جاءت فى التوراة.

والحقيقة - كما يقول العقاد فى كتاب «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين» «إن اسما من اسماء البلاد المعروفة لنا الآن لم يؤخذ أصلا عن أصحابه» فالحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم، ويقصدون به بلاد الأحباش أى السكان المختلطين، وقبل أن يسميها اليونان "باثيوبيا" أى بلاد الوجوه المحترقة، وقبل أن يسميها العبرانيون بلاد الكوشيين لإنهم ينسبون أهلها إلى كوش بن حام بن نوح. والهند كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها «الهندوس» وقبل أن يطلق اسم النهر على شبه الجزيرة كلها. وكانت بلاد اسكندنافيا معمورة قبل أن يسميها أهل الجنوب بلاء النورد أى الشماليين.

وكانت إنجلترا معمورة بطائفة من السكان يوم أطلق عليها اسم إنجلترا أو أراضى الأناجله الذين قدموا إليها فى القرن الخامس الميلادى، ومن ملوكها من كان يحلو له أن يسميها بلاد الملائكة «انجلكس» لأن البابا جريجورى أختاره لها بدلا من بلاد الأناجلة الذى يشبهه فى النطق.

واليونانيون الذين سموا الفينيقين باسمهم نسبة إلى الكلمة اليونانية «فينكس» التى تعنى النخلة، والتى كانت رمزا للساحل الفلسطينى شمال مدينة صور وجنوبها، وهم الذين أطلقوا على سورية «أشورية» اسمها الحالى، وهم الذين سموا مصر باسم مدينة «كبتوس» المأخوذ من مدينة «قفط» ثم أطلقوا اسم «جيبتوس» على القطر كله، وهو الاسم المشهور الأن فى اللغات الأوربية كلها.

وهكذا نرى أن اسما من اسماء البلاد المعروفة لنا الأن «لم يؤخذ أصلا عن أصحابه» بل أن أصحابه هم الذين أخذوه من جيرانهم أو غزاتهم.

وحينما نعرف أن اسم مصر الحالى مأخوذ من البابلية والأشورية والكنعانية وهى كلها لغات سامية بل هى «عربية تلك الأيام فى مواطنها» كما يقول العقاد حينما نعرف ذلك تكون مصر متمشية مع تلك القاعدة فى تسمية البلاد والشعوب، ولاتكون بدعا بينها جميعا.

وهكذا نرى أن اسم مصر الحالى هو الاسم الذى وضعه لها «الغزاة العرب» وهو مايحاول أن يتجنب الدكتور لويس عوض الإشارة إليه، بل إنه يحاول أن ينفيه، رغم كل التأكيدات التى ساقها فى هذا الصدد كل علماء التاريخ والآثار.

ولكن ماذا يعنى اسم «مصر» فى اللغة العربية؟ «مصر» فى لسان العرب لابن منظور هى الحاجز بين شيئيين.

يقول الشاعر العبادى:

وجعل الشمس مصرا لاخفاء به.. بين النهار وبين الليل قد فصلا.

والمصور هى الحدود أو الأسوار، ويكتب المصريون فى عقودهم «اشترى الدار بمصورها» أى بحدودها.. وكذلك يكتب أهل هجر كما يقول ابن منظور فى لسان العرب. ويقال أرض ممصره أى متفرقة أو متمصرة أى ضيقة من ناحية وواسعة من الناحية الأخرى.

ويقول ابن السراج: المصر هى الموضع أو الكور «المدينة أو العاصمة».

ويقول ابن منظور: مصر مدينة بعينها سميت بذلك لتمصرها لتمدنها»!

ويقول الجوهرى: فلان مصر الأمصار.. أى أنشأ المدن .

ويقول الليثى: المصر فى كلام العرب: كل كور «عاصمة أو مدينة"

تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفىء أو الصدقات.

المصر: هى الوعاء ومنه جاءت تسميتها «بالكنانة» أى الوعاء الذى تحفظ فيه سهام المحارب.. والمصارين» هى وعاء الغذاء بالمعدة.

المصر: هى الطين الأحمر.. والثوب الممصر هو الثوب المصبوغ بحمرة أو صفرة خفيفة.

المصران: هما الكوفة والبصرة. وكان عمر قد مصرهما : أى حددهما وبناهما. ويقال مصر الرجل أملاكه: أى قسمها إلى قطع محددة بحدود.

وقال عمر بن الخطاب حين سألوه عن الموقع الذى يجب أن يبنوا فيه مدينة الكوفة : «لاتجعلوا البحر بينى وبينكم.. مصروها» أى اجعلوا الكوفة مصرا أو حدا بينى وبين البحر (الفرات)، وكان عمر يقيم فى المدينة» ولايريد أن يعبر الفرات لكى يصل إلى الكوفة. التى أشار ببنائها قبل النهر وليس فيما وراءه.. وتكون الكوفة بذلك مصرا بينه وبين الفرات.

هذه هى مادة «مصر» فى لسان العرب.. وليس فيها من شىء لايمكن أن ينطبق على مصر التى نعرفها الآن والتى عرفها الناس منذ آلاف السنين.فإذا كان المصر» هو الحاجز بين شيئين، فقد كانت مصر هى الحاجز بين العرب الجزيرة العربية وبين بحر النيل، كان النيل فى الغرب وكانت مصر التى عرفها العرب تقع إلى الشرق منه - فى جهة العرب-

وهى مصر التى بنى فيها عمرو بن العاصى مدينة الفسطاط شرق النيل، أى أن العرب لم يكونوا فى حاجة إلى عبور النيل لكى يصلوا إلى مصر، فقد كانت مصر هى الحد أو الحاجز بينهم وبينه،

ولايزال المصريون حتى اليوم يطلقون اسم مصر على مدينة القاهرة وحدها، وهى التى بنيت مكان بابليون والفسطاط فى الشرق من النيل، حيث كانت هى الحاجز أو الحد أو المصربين النيل وبين القادم إليها من الشرق.. الجزيرة العربية. ولهذا سمى العرب المدينة الأخرى التى تقع إلى الغرب من « مصر» مدينة «الجيزة» لأن الوصول إليها كان يحتاج إلى «اجتياز» النيل أو«مصر»!!

واذا كان يقال عن الأرض إنها «ممصرة» أىْ متفرقة أو«متمصرة» بمعنى أنها ضيقة من ناحية وواسعة من الناحية الأخرى، فإن ذلك ينطبق على مصر جغرافيا وتاريخيا:

فمن الناحية الجغرافية تعتبر مصر ضيقة من ناحية برزخ السويس الذى كان هو بوابة العرب إلى مصر، وواسعة فيما تلاه من الأرض.. كذلك تعتبر مصر ضيقة جدا على جانبى النيل فى أراضى الصعيد ثم تبدأ فى الإتساع بالدلتا. ونحن نقصد بالطبع المساحة المأهولة بالسكان. وماعداها فهو صحراء مثلها مثل بقية الصحراوات التى لاتميز مصر فى شىء. أما من الناحية التاريخية.. فقد كانت مصر متمصرة بمعنى إنها متفرقة أو

مقطعة «مصر الرجل أملاكه أى قطعها قطعا قطعا» حين كانت تنقسم مصر إلى مقاطعات يحكم كل منها أمير، وهذا معروف فى التاريخ المصرى القديم. والنزاع بين الأمراء المصريين على حكم تلك المقاطعات أمر معروف لدى أقل الناس حظا من الإطلاع على التاريخ المصرى القديم.

أما قول الجوهرى وابن منظور وغيرهما: أن فلانا مصر الأمصار أى مدن المدن، وإن عمر بن الخطاب قد مصر الكوفة والبصرة، أى بناهما مدينتين، فإن ذلك ينطبق على مصر أكثر مما ينطبق غيره من المعانى فى لسان العرب، فقد كانت مصر هى «المدينة» وسط الصحراء العربية شرقا وغربا، ومنها جاءت تسمية الأمصار أو المدن والعواصم حين بنى العرب المدن أو الأمصار فى البلاد المفتوحة، مثل مصر الكوفة ومصر البصرة وغيرهما. ولعل ذلك هو السبب فى اطلاق المصريين اسم «أم الدنيا» على مصر، حيث كانت اما لكل الأمصار بعدها.

وإذا قلنا مع العرب أن المصر هو الطين الأحمر أو المائل إلى الصفرة، فإنه ينطبق على مصر المعروفة بطينها الخمرى الذى يجمع بين الحمرة والصفرة وكانت كلمة «كيما» التى أطلقها الفراعنة على مصر تحمل نفس المعنى.إذن.. هذا هو اسم مصر صريحا دون تخريجات أو تفسيرات أو توليد «قيصرى» للغة من اللغات، وهو يحتمل من المعانى ما ينطبق على

مصر، بل أن مصر كانت هى الأساس الذى استندت إليه كل تلك المعانى فى قاموس العرب. فلماذا نلجأ إلى التحريف وأمامنا الاسم بهذا الوضوح والصراحة؟! فهل غير عبد الناصر اسم مصر لأنه كان اسما فرعونيا، وهو رجل عروبى لا يحب الفراعنة؟!

يقول الدكتور لويس عوض (الأهرام ١٩ مارس ٧١).

(إنى بحثت عبثا فى مقرر التاريخ القديم للإبتدائية المصرية عن كلمة فرعون وفراعنة، فلم أعثر على أى أثر رغم أن الحديث كله عن الفراعنة ومصر الفرعونية، فكأنما النية مبيتة على محو هذا السم بالممحاه من سجل الماضى ومن ذاكرة أبنائها، ربما إرضاء لغلا{ البعثيين أيام وحدتنا مع سورية.. فقد وضعت أكثر هذه الكتب المقررة أيام الوحدة.. مفصلة على ظروف تلك الأيام التى طولبنا فيها بمحور اسم مصر من الخريطة ومن الذاكرة»!!

والدكتور لويس عوض الذى لم يكن يعرف أن اسم مصر هو اسم عربى صريح- لايعرف أيضا أن اسم فرعون لم يكن اسما لشخص أو لجنس من الأجناس البشرية بل كان اسما لنظام حكم.

فراعنة؟. نعم.
عرب؟.. نعم..نعم..نعم!!

يحلوا أحيانا لبعض الجهلاد أو المتنطعين أو المستغر بين- المنتمين إلى الثقافة الغربية- أن ينفوا عن أنفسهم صفة العروبة.. فيقولون: «نحن لسنا عربا.. إنما نحن فراعنة»!

والغريب إنهم يقولون ذلك بلغة عربية سليمة، وإذا سألتهم أن يعبروا عن رأيهم هذا باللغة الفرعونية.. خرسوا ولم يفتحوا أفواههم!وهم بذلك يصبحون مثل مواطن من جزيرة «كريت» وقف ليقول ذات يوم: «كل الكريتيين كذابون» وبما إنه هو نفسه كريتى فهو أيضا كذاب، وبالتالى يصبح الكريتيون صادقين.. أو على الأقل ليسوا كذابين. بشهادة هذا المواطن الكريتى نفسه!!

يقول الدكتور عبد العزيز صالح صاحب كتاب «الحضارة المصرية القديمة» بإن لقب «فرعون» جمع بين صيغة مصرية قديمة وصيغة عبرية،

وصيغة عربية.

ويضيف العلامة المصرى بأن «صيغته المصرية القديمة برعا أو برعو وهى نفسها الصيغة الأشورية القديمة، أما صيغته العبرية فهى «فرعو» بعد قلب الباء فاء، وصيغته العربية «فرعون» بعد إضافة نون أخيرة.. وكلها تعنى «البيت العالى» أو «القصر الملكى»..!! أى إنها كانت تعنى القصر ولم تكن تعنى ساكنه.

وحتى لو كان «فرعون» لقبا للحاكم وليس اسما لنظام الحكم فإن أول فرعون فى مصر كلها هو «مينا» نعرمر الذى يقطع سليم حسن بإنه ينتمى إلى الأقوام العربية.. وقد كان هناك فراعنة فى مصر من سورية والعراق وليبيا والسودان، طوال عصور التاريخ المصرى القديم.. فهل كان العرب فراعنة؟.

نعم .. كان العرب فراعنة حكاما فى مصر.. فالفرعونية كانت نظام حكم ولم تكن جنساً من الأجناس أو عرقا من الأعراق البشرية، كان حاكم مصر اسمه «الفرعون» وحاكم روما اسمه «القيصر» وحاكم فارس اسمه «كسرى» أيا كان الاسم الذى يلى هذا اللقب، فكان رمسيس وأحمس وتحتمس فراعنة مصر، كما كان ى«اشورعا نيبعل» السورى وششنق الليبى وطهرقا السودانى فراعنة فى مصر أيضا. الفرعونية - إذن - كانت نظاما للحكم مثل لقب «الرئيس» أو «الملك» أو «السلطان» أو «الأمير»

الذى نعرفه نحن الآن فى الوطن العربى وفى العالم. وقد كان العرب فراعنة فى مصر، مثلهم مثل المصريين، كما كان المصريون فراعنة بالمملكة العربية كلها طوال فترة تاريخية ليست قصيرة.

وهكذا نرى أن الفرعونية كانت دليل وحدة عربية، ولم تكن دليل اختلاف... فالمسألة إذن لا تحتاج إلى «نية مبيته» من أحد.. ولا لإرضاء أحد لأحد، ولا تحتاج إلا لسعة أفق وحسن نية!! ولو كان الدكتور لويس عوض قد أطلع على تاريخ مصر الفرعونى جيداً، لعرف أن الوحدة بين مصر وسورية التى تمت فى عهد عبد الناصر، لم تكن شيئا جديداً فى تاريخ البلدين بالذات، وقد كانت «الوحدة» هى القاعدة فى تاريخ العلاقات بينها، وكان «الانفصال» هو الاستثناء. فى التاريخ الفرعونى حدث ذلك.. وفى التاريخ العربى أيضا، بل أنه حدث فى التاريخ الفرعونى لمئات والاف السنين بينما لم تستمر الوحدة بين مصر وسورية فى التاريخ الحديث إلا لثلاث سنوات فقط.

فالتاريخ الفرعونى أو فى جزء كبير جداً منه هو تاريخ الوحدة بين مصر وسورية فلماذا نخجل من «ذكر فرعون وفراعنة» كما يقول لويس عوض – فى عهد الوحدة مع سورية.. وكان السوريون فراعنة فى مصر – كما كان المصريون فراعنة فى سورية؟!

جمهورية المنيا الديموقراطية..!!

** ولاشك أن دعوة الدكتور لويس إلى قومية مصرية وسط «قوميات عربية» دفعته لتبنى الكتابة باللهجة العامية المصرية، والدعوة إلى استخدامها منذ أكثر من ثلاثين عاماً.

لم يكن ذلك غريبا من الدكتور لويس عوض بل أن الغريب هو عكس ذلك تماما، فالذى يقول بقوميات مختلفة، وحضارات متباينة، لابد وأنه يقول قبل ذلك كله، بلغات مختلفة.

فإذا كانت اللغة العربية تجمع العرب جميعا وتدل على وحدتهم الثقافية والحضارية والتاريخية، فأنها لابد أن تتعرض منه لحملات الانتقاد التى بلغت حد التشكيك والهدم.

سئل الدكتور لويس عوض (جريدة السياسة الكويتية ١٩٨٣):

* هل استخدامك للهجة العامية يصدر عن فلسفة معينة تؤمن بها؟

* أجاب الدكتور لويس عوض:

«بالطبع.. لما سافرت إلى إنجلترا ودرست الإيطالية لاحظت شيئا غريبا: أن البعد بين اللاتينية والايطالية أقل من البعد بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة، وبالتالى بدأت اتساءل: لماذا يمتنع العرب فى القرن العشرين عن التعبير عن أنفسهم بلهجات دارجة؟

«إننى لم أغير موقفى من مشكلة اللغة حتى هذه اللحظة برغم أننى تقدمت فى السن وتقدمت فى المعرفة، وتعرضت لهجوم كثير من النقاد.. إلا أننى لم أعدل عن موقفى... الذى لا يزال كما كان منذ ثلاثين عاماً. إن الأدب الحديث يجب أن يهتم بالعامية ويجاور الأدب الفصيح، لأن هذا يعبر عن شىء.. وهذا يعبر عن شىء آخر».

وبالطبع فإن الدكتور لويس عوض لم ينس أن يجيب عن سؤال الصحيفة الكويتية بلغة عربية فصحى، كأحسن ما تكون الفصحى، لأنه يعلم أن إجابته بالعامية التى يدعو إليها لن تكون مفهومة فى الكويت.!

ولكن دعونا نسأل دكتورنا بأية لغة عامية يريدنا أن نكتب؟

لعله يقصد لهجة سكان القاهرة.. ولكن لماذا القاهرة بالذات؟

وهل الأدباء والمفكرون لا يأتون إلا من القاهرة؟ بالطبع لا.. طه حسين من المنيا – ومثله أيضا الدكتور لويس عوض نفسه.. والعقاد من أسوان ومحمد حسين هيكل من المنصورة وسلامة موسى من الزقازيق، وتوفيق الحكيم من الاسكندرية.. ولا يوجد كاتب مصرى كبير ولد فى

القاهرة سوى نجيب محفوظ ويحيى حقى وغيرهما قليلون!!

فماذا لو كتب كل منهم بلهجته المحلية؟

الإجابة سهلة ومعروفة: لن تتعدى كتابات أحدهم حدود المحافظة التى نشأ فيها.. فيكون الأديب الأسوانى عباس محمود العقاد، والكاتب الزقازيقى سلامه موسى والمفكر المنياوى لويس عوض.. وهكذا..!!

هل يقبل لويس عوض لكاتب كبير مثل عباس العقاد... وهو استاذه ومثله الأعلى.. ألا يتعدى حدود أسوان، وهل مكانة العقاد لا تتعدى فى نظره حدود محافظة صغيرة مثل أسوان؟

– ثم عما يكتب العقاد؟

– يكتب العقاد فى السياسة والأدب والفكر والفن.. ولكن سياسة من؟ وفكر من وأدب وفن من؟

– الأدب المصرى والسياسة المصرية والفكر المصرى والفن المصرى – لن أقول العربى أو العالمى – إذن فلماذا لا يكتب العقاد عن ذلك باللغة المصرية؟

– ولكن ما هى اللغة المصرية؟

– اللغة العامية.. طبعاً

– أية عامية والعقاد لا يعرف سوى عامية أهل أسوان، ليست هناك عامية واحدة فى مصر.. هناك لغات عامية بعدد ما فيها من قرى ونجوع..

فى مصر الآن خمسة آلاف قرية كبيرة!!

بل أن هناك قرى مصرية كثيرة يتحدث سكانها بأكثر من لهجة واحدة.. وذلك – كما نعرف – لتعدد القبائل العربية التى سكنتها.

والعقاد كان يكتب ليصل إلى الناس – ولم يكن بالتأكيد يكتب لنفسه – ولكى يصل إلى الناس كان عليه أن يكتب باللغة التى تجمعهم.. وهى العربية الفصحى..

لكى يتحقق الهدف من الكتابة يجب أن تكون بلغة مفهومة لجميع القراء المحتملين، وإلا فلا معنى للكتابة بها إذا لم يكن الهدف منها هو الناس.. جميع الناس الذين ينتمى إليهم الكاتب، والذين عناهم بكتاباته وأفكاره. إذن اللغة فى الأصل مادة اتصال وتواصل بين المجتمعات البشرية.. ولكن الدكتور لويس يريدها بالعكس.. مادة انفصال واختلاف!!

فاللغة المصرية الى يدعونا إليها لغة لا وجود لها فى الأصل. بل هى عدد من اللغات «اللهجات» بعدد ما فى مصر من قرى.. وهى كثيرة جداً، فإذا سمح الدكتور بالتخلى عن اللغة الفصحى أصبحنا أمام لغات عديدة ومختلفة. وأصبح من حق أى فرد ينتمى إلى أية لهجة منها أن يستخدم لهجته الخاصة.. فنصبح أمام «اداب» بدلاً من أدب واحد، وثقافات بدلاً من ثقافة واحدة، و«اشعار» بدلاً من شعر واحد... وهكذا.

ولكن ليسمح لنا الدكتور لويس أن نسأل هنا سؤالا نعتقد أنه على

قدر من الوجاهة والمنطق؟ إلى أى تراث سوف تستند كل تلك الآداب والثقافات أم أن التراث فى الفكر والأدب والثقافة والفن مسألة لا أهمية لها فى نظر دكتورنا؟

ثم.. إذا كان الحال كذلك فى مصر وحدها.. فكيف يتم الاتصال مع بقية «الشعوب» العربية الأخرى؟ أم أن ذلك أيضا لا أهمية له فى نظر دكتورنا؟

كيف يتسنى لنا الانفتاح - ودكتورنا كما نعرف من أكبر دعاة الانفتاح الثقافى على العالم؟

كيف نستفيد من تراث العرب «الآخرين» ونفيدهم بتراثنا؟

لعله يقول لنا بطريق الترجمة إلى الفصحى.. وهنا لا نستطيع إلا أن نضحك.. لأن شر البلية ما يضحك، كما يقولون!

ولكن لماذا ينساق الدكتور لويس عوض وراء المستشرقين؟

لقد كان أول من دعا إلى استخدام العامية فى مصر، هو المستشرق الألمانى «ولهلم سبيتا» (١٨١٨ - ١٨٨٣) - حين كان موظفا بدار الكتب المصرية، وقام بتأليف كتاب اسماه «قواعد اللغة العامية فى مصر» قال فيه:

«كل من عاش فترة طويلة فى بلاد تتكلم العربية يرى إلى حد كبير أنه من الصعب النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة

الكتاب.. فى مثل تلك الظروف لا يمكن مطلقا التفكير فى ثقافة شعبية، إذ كيف فى فترة التعليم الابتدائى القصيرة إن يحصل الطفل، حتى على نصف تعليمه بلغة صعبة جداً «كاللغة العربية الفصحى»! ثم يضيف «سبيتا»: وطريقة الكتابة العقيمة بحروف الهجاء المعروفة يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم فى كل هذا.. ومع ذلك يكون الأمر سهلاً لو اتيح للطالب أن يكتب بلغة، إن لم تكن هى لغة الحديث الشائعة. فهى على كل حال ليست العربية الكلاسيكية القديمة بدلاً من أن يجبر على الكتابة بلغة هى من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالى من المصريين مثل غرابة اللاتيينية بالنسبة للإيطاليين.. وبالتزام الكتابة العربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقى ويتطور»!

ويتساءل «سبيتا» قائلاً: لماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة إلى ما هو أحسن؟.. ببساطة لأن هناك خوفاً التعدى على حرمة الدين، إذا تركنا لغة القرآن كلية، ولكن لغة القرآن لا يكتب بها الآن فى أى قطر.. فإينما وجدت لغة عربية مكتوبة فهى اللغة الوسطى، أى لغة الدواوين وهى ما «يدعى» بالوحدة بين «الشعوب» العربية لا يمكن أن يطلقها لتبنى لغة الحديث العامية.. إذ أن لغة الصلاة والعبادات الدينية الأخرى ستظل كما هى فى كل مكان»!

ويلاحظ أن «سبيتا» هنا يدعو إلى استخدام العامية تحت ستار

الحرص على «الثقافة الشعبية»، وتعليم الأطفال وهى ذات الشعارات التى رفعها كل الداعين إلى ترك الفصحى والالتزام باللهجات العامية فيما بعد.. ثم هل من قبيل الصدفة أن يستشهد لويس عوض بالفرق بين اللاتينية والإيطالية، وهو ما استشهد به أيضا المستشرق الالمانى فى دعوته إلى استخدام العامية؟ وقول لويس عوض أيضا بأن الفصحى تعبر عن شىء والعامية تعبر عن شىء أخر هو ما أدعاه المستشرق الألمانى حين قال «بأن الكتابة بالعامية شىء.. ولغة الصلاة شىء آخر»..!!

أى أنه كلاهما أراد أن يحول العربية الفصحى إلى لغة كهانة وطقوس دينية تماماً مثل اللاتينية بالنسبة للإيطالية.!

ولكن من قال بأن لغة الكتابة فى أية لغة من لغات العالم هى لغة الحديث اليومى حتى فى إيطاليا ذاتها؟ لأن لغة الكتابة تختلف عن لغة الحديث.. بالرغم من تفرع الإيطالية كلهجة عن اللغة اللاتينية الأم، أى أن ما يعرف باللغة الإيطالية ما هو إلا اللغة الفصحى بالنسبة للهجات الإيطالية الأخرى.. وبذلك يكون الشعب الإيطالى قد اعتمد لغة فصحى جديدة، معترفا بأهمية الفصحى فى توحيد الشعب الإيطالى بمختلف لهجاته المحلية.

ولكن يلاحظ أنه لا وجود للشعب الإيطالى خارج حدود إيطاليا السياسية.. بمعنى أن حدود إيطاليا اللغوية تنطبق على حدود إيطاليا

السياسية، وهذا بالطبع ليس متوفراً عندنا .. إذ أن حدود لغتنا الفصحى لا تنطبق حتى الآن على حدود الناطقين بها، والدعوة إلى الوحدة العربية هى دعوة لهذا التطابق اللغوى والسياسى.

أما الدعوة إلى المصرية الفصحى - إذا جاز لنا هذا التعبير - فهى دعوة للتفتيت والتشرذم، ليس فقط تفتيت الأمة العربية إلى أقطار، بل تفتيت الأقطار ذاتها إلى محافظات وقرى حسب لهجة كل منها. وذلك لأنه لا توجد لغة مصرية (لهجة) أحق من اللهجات المصرية، الأخرى بالتزام الشعب المصرى كله، وبالتالى فإن اعتماد اللهجة معياراً للتقسيم الإدارى والسياسى سوف يؤدى بنا إلى تقسيم الدول الحالية إلى «دويلات».

وعلى نفس الأساس الذى نرفض إقامة «دويلات» عليه داخل القطر العربى الواحد.. فإننا نرفض إقامة «دويلات» داخل الوطن العربى كله بناء على اللهجات المحلية.. فإذا كان الأساس مرفوضا داخل القطر، فأولى به أن يكون مرفوضا فى الوطن العربى كله.

فإذا اعتمدنا اللهجة المحلية أساساً ومعياراً للتقسيم الإدارى والسياسى أصبح «من حق» القاهرة أو دمشق أو بغداد أو الخرطوم أن تكون دولة بذاتها .. أما إذا رفضنا ذلك المعيار واستبدلناه بمعيار الفصحى أصبح «من الواجب» جمع البلاد الناطقة بالعربية فى دولة واحدة تتطابق فيها الحدود السياسية مع الحدود اللغوية، ولعل هذا هو

السر فى دعوة المستشرقين من أمثال سبيتا وولكوكس وغيرهما من التلاميذ النجباء فى مدرسة الاستشراق، إلى استخدام اللهجة المحلية أو اللهجات العامية فى الكتابة بدلاً من الفصحى، لأنهم يعرفون جيداً أن بقاء اللغة الفصحى على قيد الحياة، سيظل دائما مثيراً لشعور متعليمها فى أرجاء الوطن العربى، مذكرا أياهم بذلك التناقض القائم بين حدودهم اللغوية وحدودهم السياسية، فيحفزهم على الدعوة للوحدة حلاً لهذا التناقض الفاضح.

وحلاً لهذا التناقض القائم.. أخذ هؤلاء المستشرقون وتلاميذهم فى الدعوة إلى استخدام اللهجات المحلية حتى يشعر المتكلمون بها بتطابق حدودهم اللغوية مع حدودهم السياسية فيتقوقعون خلفها ولا يتطلعون فيما وراءها إلى «الشعوب» الأخرى التى تتكلم «لغات» أخرى.. وهكذا لن يصبح هناك تناقض يحفز أحداً على «تجاوز حدوده»، وتكرس الفرقة والانعزال، وينعدم التواصل.. ومع استمرار الوقت تصبح هناك «قوميات» بعدد ما هناك من لهجات..

وهذا هو الحل فى نظر أولئك.. الحل هو التفريق وليس الجمع.

والدكتور لويس عوض يعلم أن «القومية المصرية» التى يدعو إليها، لن يكون لها ما يبررها دون «لغة مصرية» تستند عليها، فإذا كان قد قال بالتفريق بين القومية المصرية والقومية العربية.. كان عليه أن يقول قبل

ذلك بثلاثين عاماً بالتفريق بين الفصحى والعامية..!!

فهى ليست – إذن – دعوة ثقافية.. إنما هى دعوة سياسية تتستر بالدعوات الثقافية الى تتستر – بدورها – وراء الثقافة الشعبية وتعليم الأطفال.. إلى آخر ما هناك من مبررات ضعيفة لأننا نعرف أن كثيرا من الأطفال – خاصة فى عصر الكتاتيب – كانوا يحفظون القرآن الكريم قبل بلوغ السادسة من أعمارهم.. والقرآن كما نعرف مكتوب بلغة عربية كلاسيكية. وهى اللغة التى اتهمها «سبيتا» وتلاميذه بالعقم والجمود.. فكيف تكون العربية الكلاسيكية لغة عقيمة وجامدة. «وصعبة جداً» والأطفال دون السادسة يحفظون قرآنهم بها؟ وإذا كان هذا هو شأن العربية «الكلاسيكية» بالنسبة للأطفال، فكيف يكون شأن العربية الفصحى الحديثة بالنسبة للكبار؟!

مرة أخرى نقول إذا كان الدكتور لويس عوض حريص على اعتماد اللهجة كأساس للتقسيم القومى.. فإنه بذلك يفتح الباب واسعاً أمام «قوميات» كثيرة ليس فقط على مستوى «الوطن العربى» ولكن على مستوى «الدول» الأصغر التى تنقسم بدورها إلى دويلات أصغر فأصغر، ويصبح من حق كل محافظة، بل من حق كل مدينة أو قرية أن تصبح دولة فيما بينها، وفى هذه الحالة سنعود إلى عصر «المدينة الدولة» أو «الدولة المدينة» الذى كان سائداً فى العصر الإغريقى القديم والذى – فيما يبدو –

قد أثرت دراسته فى دكتورنا أكثر مما أثرت فيه حياته فى مصر.

فإذا رفضنا هذا المنطق – وكلنا يرفضه بلاشك – نكون قد وضعنا أقدامنا على أول درجة فى سلم الصعود القومى، والوحدة العربية، لأنه – باختصار – إذا رفضت أن تعطى الحق لأية مدينة عربية فى أن تقيم حدودها السياسية على أساس من لغتها المحلية، فأولى بنا أن نرفض حق أية «دولة» عربية فى أن تقيم حدودها السياسية على أساس من لغتها المحلية. هذا إذا كانت هناك لغة محلية واحدة لكل دولة عربية على حدة.

وهكذا تصبح المعادلة باختصار.. كالتالى:

هناك لغة محلية لكل مدينة عربية.. وكلنا نرفض أن تقيم أية مدينة «دولة» على هذا الأساس.. فكيف نسمح للدولة «القطرية الإقليمة» أن تقيم دولتها التى لا يتوفر لها «وحدة لغوية» كلية مثل أية مدينة عربية فى أية «دولة»عربية؟

كيف نسمح لأية «دولة» عربية أن تقيم حدودها السياسية على أساس لغة محلية وهى لا تملك لغة محلية واحدة، ولا نسمح لأية مدينة عربية أن تقيم دولتها وهى التى تملك لغة محلية واحدة؟

وبذلك يكون أولى بالذين يرفضون المدينة الدولة داخل أوطانهم أن يرفضوا «القطر» الدولة داخل وطنهم الكبير.. لأن القطر لا يملك من عناصر الوحدة و«القومية» ما تملكه أية مدينة فى داخله على حدة.

** وإذا كان هذا هو شأن اللغة، فهو أيضا شأن التاريخ، والجغرافيا والأرض، والمصير، والهدف.. إلى أخر عناصر القومية الواحدة.

لإننا إذا كنا نبحث عن «القاسم المشترك» بين المدن والقرى والمحافظات لنقيم بينها جميعاً دولة قطرية، فإن هذا «القاسم المشترك» الذى يؤلف بين المدن داخل القطر الواحد هو ذاته - دون زيادة أو نقصان، الذى يؤلف بين الأقطار جميعاً، فلماذا نحرص على الوحدة ثم يقف بها عند حدود هذا القطر؟.. بل أن «القطر» و«الحدود» هنا يصبح لا معنى لها.. فما الذى جعل حدود القطر تقف عند هذه النقطة بالذات، ولماذا لم تكن بعده أو قبله بكيلو أو حتى عشرات الكليو مترات، خاصة وأن «القاسم المشترك» مازال يقوم بدوره فيما وراء الحدود المرسومة.

وعلى سبيل المثال: نحن نعرف أن لهجة سكان العريش - هى أقرب إلى اللهجات الشامية منها إلى اللهجة المصرية، فما الذى جعل العريش مدينة مصرية ولم يجعلها من مدن الشام؟ أو لماذا لم يجعل مدن الشام مدنا مصرية مثل مدينة العريش؟

ونحن نعرف أيضا أن قبائل أولاد على ينتشرون فى محافظة البحيرة - على بعد مائة كيلو من القاهرة - وحتى داخل ليبيا، ونعرف أيضا أن الحدود بين ليبيا ومصر حدود وهمية.. فما الذى جعل تلك الحدود

تقف عند هذه النقطة بالذات ولم يجعلها تمتد إلى محافظة البحيرة داخل مصر أو محافظة برقة داخل ليبيا؟

لا شيء.. لا شيء سوى الاستعمار!!

نقول ذلك لأننا نعرف أن احداً لا يستطيع أن يأتى بكل تلك الأعمال غير المنطقية، بل والمخالفة لكل قوانين الطبيعية والمنطقة غير الاستعمار!! ثم إننا إذا كنا قد صدقنا الاستعمار فيما فعله، وأكدنا عليه وحرصنا كل التأكيد والحرص، ألا نكون بذلك «إذناباً له»؟

كيف نكون «وطنيين» ونحن – فى ذات الوقت – حريصون مع الاستعمار على ما رسمه لوطننا من حدود؟.. كيف نكون وطنيين ونحن مع الاستعمار ولسنا ضده؟

** كتب الدكتور لويس عوض [الأهرام ٢٤ / ٥ / ٨١] متحدثا عن أوضاع مصر قبل وبعد الثورة : «وقد قامت أسس الفلسفة الديموقراطية الليبرالية على العلمانية وعلى مبدأ الحق الطبيعى وهو ما حمى الكفاح الوطنى من الشوفينية العمياء ومن كراهية الأجانب»!

ثم أضاف فى مكان أخر من مقاله السابق:

«غير أن سياسة الباب المفتوح عندما تمتد من مجال السلع والخدمات المستوردة إلى مجال الأفكار والقيم المستوردة سوف تبعث فى مصر على وجه اليقين ذات التراث الإنسانى العظيم»!

وأضاف لويس عوض ناقداً الأوضاع الثقافية فى عهد عبد الناصر: «وهكذا أصبح الاكتفاء الذاتى شعار عبد الناصر فأقيمت حواجز من الحماية الاقتصادية والثقافية لتحول دون استيراد السلع والأفكار، وفى تمجيد الثقافة القومية إلى درجة تدعو إلى السخرية ولاسيما فيما يتصل بالتيار العربى».

«لقد صحونا من الوهم بهزيمة ٦٧ ولكن التدمير كان قد تم بالفعل.. كانت خمسة عشر عاماً من العزلة الثقافية قد شكلت جيلاً كاملاً من المثقفين المكتفين بالذات»!.

ونحن هنا نرد على كلام الدكتور لويس عوض بعدد من الملاحظات السريعة:

أولها: إن كراهية «الوطنيين» للأجانب «شوفينية عمياء» ، وأن حبهم لهم من «الديموقراطية والعلمانية والحق الطبيعى»..

وعلى الذى لا يصدقنا أن يرجع إلى ماكتبه الدكتور لويس عوض فى المقال الذى أشرت إليه ونحن نسأل: كيف يكون الكفاح كفاحاً وطنيا.. ولا يقوم على كراهية الأجانب، خاصة إذا كانوا محتلين؟

وهل من الديموقراطية والليبرالية أن يحتلنا الأجانب ولا يكون من حقنا حتى الشعور ناحيتهم بالكراهية؟!

ثانيها: أن الدكتور يؤكد على أن «الاكتفاء الذاتى» فى الاقتصاد

والثقافة «نوع من الوهم» بل سبب من أسباب التدمير!

ثالثها: أن تمجيد الثقافة العربية وتراثها القومى نوع من «الانغلاق» والتحجر وأن «الانفتاح» سوف يبعث فى مصر «على وجه اليقين ذات التراث الإنسانى العظيم»!

فهل كان «التراث العربى» فى عهد «الانغلاق الناصرى» ليس جزءاً من «التراث الإنسانى العظيم» أم أن هذا التراث الإنسانى العظيم ليس عظيما إلا فى أمريكا ودول الغرب فقط؟!

لاشك فى أن الدكتور لويس عوض كان - كما هو دائما فى كل ما كتب - متسقاً مع ذاته، تمام الاتساق.. ولكنه ليس كذلك مع الواقع والتاريخ..!!

فهو يعلم - بل أول من يعلم - أن عهد عبد الناصر - خاصة فى مجال الثقافة الذى كان الدكتور عوض أحد كبار مسئولية، لم يكن عهد انغلاق، وإذا بحث دكتورنا فى مكتبته سيجد أن أكثر ما فيها من كتب مترجمة، قد ترجم فى عهد عبد الناصر ومؤسساته الثقافية.. منها سلسلة «مسرحيات عالمية» و«روائع المسرح العالمى»، و«الألف كتاب» و«قصص عالمية» وكتب فرانكلين الأمريكية وغيرها من مشروعات وهكذا نرى أن عهد عبد الناصر لم يكن عهد انغلاق على «التراث الإنسانى العظيم» .. بل لم يكن حتى منغلقاً على التراث غير «العظيم» مثل مجلة «حوار» الأمريكية!!

فقد ظلت تلك المجلة الأمريكية تهاجم عبد الناصر ونظام حكمه، ولم يصدر عبد الناصر قراراً بمنعها من دخول مصر، رغم أن كثيراً من الكتاب والصحفيين قد طلبوا ذلك. (رجاء النقاش وأحمد عبد المعطى حجازى وغيرهما). فى حملة صحفية ضد المجلة، كما أن عبد الناصر لم يصدر قراراً بمنع أحد من الكتاب المصريين من الكتابة فيها، ولكن رفض كاتبان مصريان هما نجيب محفوظ ويوسف إدريس رشوة المجلة لهما .. تحت ستار «الجائزة» الأدبية التى تمنحها لأحسن كاتب.

رغم ذلك كله، لم يتخذ عبد الناصر من المجلة التى تمثل «التراث الإنسانى العظيم» أى موقف، حتى نشرت مجلة «نيويورك تايمز» وهى مجلة أمريكية أيضا - تحقيقاً مطولاً عن علاقة مجلة «حوار» والمنظمة التى تصدرها وهى «المنظمة العالمية لحرية الثقافة». (منظمة أمريكية) بوكالة المخابرات الأمريكية.

عند ذلك لم ير عبد الناصر بدا من منع المجلة من دخول مصر، وقد شهدت عليها مجلة أمريكية أخرى.

حين ذلك قامت قيامة الدنيا .. فأصدر عدد من «الشخصيات» «العالمية» بيانا اتهموا فيه عبد الناصر بالانغلاق والديكتاتورية والشوفينية»..!!

أما الدكتور لويس عوض فقد كتب مقالاً يدافع فيه عن مجلة

«حوار» ويصف البيان السابق بأنه «مظاهرة العلماء» الذين كان من بينهم روبرت اوبنهايمر.. الذى ساعد اسرائيل فى إنشاء المفاعل النووى بها، و«رجمان» رئيس مدرسة الجواسيس ومدير حملة الدعاية ضد العرب، ولم يكن ذلك غريبا، فقد كانت مجلة «حوار» وشقيقتها «انكاونتر» وغيرهما من مجلات «المنظمة العالمية لحرية الثقافة» التى دأبت على الدفاع عن إسرائيل باعتبارها «ملجأ لليهود المضطهدين وقلعة الديمقراطية فى قلب الصحراء العربية المتوحشة»!!

وإذا كان الدكتور لويس عوض قد وصف فى مقاله السابق الذى دافع به عن مجلة حوار.. بيان تلك الشخصيات بأنه «مظاهرة العظماء» فقد وصف المهاجمين للمجلة ومنظمتها الأمريكية بأنهم «شيوعيون واخوان مسلمون وبعثيون تائبون»!!

بقى أن نعرف أن مجلة «حوار» كانت تصدر تحت شعار:

«مجلة الثقافة العربية المنفتحة»!!

منفتحة على من؟.. الله أعلم.. وكذلك نيويورك تايمز!!

هل هذا هو «الانفتاح» الذى يريده لنا الدكتور لويس عوض.. إذن لقد كان «انغلاق» عبد الناصر وديكتاتوريته أرحم بنا آلاف المرات، حتى لو أدى بنا إلى «التدمير» وكل كوارث الدنيا!.

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٨ / ١٩٩١

مطبعة اطلس



imprimerie atlas

LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C. 100731, TEL: 747797

القاهرة : ١١-١٣ شارع بسوق التوفيقية س. ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

هذا الكتاب ..!



إذا قال لك أحد نحن "فراعنة" ولسنا عربا فأعلم أنه جاهل .. ! أما أن يقول الدكتور "لويس عوض" - وهو عالم فاضل - مايقول به الجاهلون ، فهو بذلك لايضع نفسه فى صفهم ، بل يريد هو أن يجمعهم إلى صفه..!!

فالفرعونية ليست جنساً من الاجناس البشرية ، ولكنها مجرد نظام للحكم ، والفرعون فى اللغات السامية القديمة هو "الحاكم" أو "الملك" أو "الباب العالى" . فهل كان المصريون جميعاً "فراعنة" بمعنى أنهم كانوا ملوكاً وحكاماً فى مصر ؟ وإذا كان المصريون جميعاً حكاماً وملوكاً .. فأين الشعب المصرى إذن ؟

لقد كان حاكم الفرس يسمى "كسرى" وحاكم الروم يسمى "قيصر" .. وحاكم مصر يسمى "فرعون" ، فهل كان الفرس جميعاً "اكاسرة" لمجرد أن حاكمهم اسمه كسرى ؟ وهل كان الرومان جميعاً قياصرة لمجرد إن حاكمهم اسمه "قيصر" ؟

الاجابة بالتأكيد هى "لا" فلماذا المصريون وحدهم كانوا "فراعنة" لا لشيء إلا لأن حاكمهم كان اسمه فرعون ؟

وفى هذا الكتاب محاولة للاجابة عن أهم واخطر سؤال يواجهه المصريون طوال تاريخهم من نحن ؟ وأين نحن ؟